مركـــز الدراســـات النســـوية

برنامج تعزيز دور المجتمع المدني في إحداث التغيير
بالتركيز على مناهضة تزويج الطفلات في المجتمع الفلسطيني

التزويج المبكر في الضفة الغربية

دراسة تحليلية بأصوات طفولية

بدعم من

OPEN SOCIETY INSTITUTE

مركـــز الدراســـات النســـوية

برنامج تعزيز دور المجتمع المدني في إحداث التغيير
بالتركيز على مناهضة تزويج الطفلات في المجتمع الفلسطيني

التزويج المبكر في الضفة الغربية

دراسة تحليلية بأصوات طفولية

٢٠١٨

بدعم من

OPEN SOCIETY INSTITUTE

جميع الحقوق محفوظة ٢٠١٨ ©

التزويج المبكر في الضفة الغربية

دراسة تحليلية بأصوات طفولية.

الباحث: أيمن عبد المجيد

مراجعة الدراسه: سائد جاسر

التدقيق اللغوي: ضياء البرغوثي

التصميم والاخراج الفني: نصوص للتصميم design & printing

مركز الدراسات النسوية

المقر الرئيسي

القدس، ضاحية البريد، عمارة ، الحرباوي الطابق الأول

admin@wsc-pal.org

٢٣٤٧٢٢٩ / +٩٧٢٢٢٣٤٨٨٤٨

مكتب الخليل

الخليل ،عمارة الرشاد ، الطابق الخامس

south@wsc-pal.org

+٩٧٢٢٢٢٩٤٠٠٧

مكتب نابلس

نابلس: البلده القديمة ، حارة الياسمينه

north@wsc-pal.org

+٩٧٢٩٢٣٧٥٥٤٥

بدعم من

OPEN SOCIETY INSTITUTE

شكر وتقدير

لكل من أسهم في هذه الدراسة والعمل عليها، ونخص بالذكر كافة المشاركات ممن استطعن أن يقدمن تجاربهن الشخصية، ولم يبخلن بأي معلومة أو رأي ليكن هن من يحمل أصواتهن للمجتمع ويقدمنه بإيمان مطلق على أن قضاياهن من الممكن أن تكون جسرًا وأملًا للتغيير المجتمعي الذي يتمنين لمناهضة تزويج الطفلات في المجتمع الفلسطيني.

وشكرنا لكل من ساهموا بآرائهم ووقتهم في سبيل إنجاز الدراسة ونخص:

فريق البحث: أيمن عبد المجيد، سهر عمر، وعضوات فريق البحث الميداني كافة: منار شعبان، سامية يوسف، ميري داوود، ليالي حجاب، تالا أبو منشار، تغريد شلالدة، مجدولين شرحه، آلاء عودة، آيات عوادة، آلاء وصوص، مي خالد أبو زعنونة، أسيل مصطفى، رولا مسودة، سناء جعفري، شروق سعد.

كافة الخبيرات والخبراء ممن كانوا جزءًا من الدراسة التحليلية.

كادر مركز الدراسات النسوية اللواتي تابعن العمل (ساما عويضة، سهر عمر، عايدة عيساوي، عبير أبو تركي، أمينة أصلان، سناء سيوري، نهى شرف، نفين المصو، سيرين سوداح).

كافة عضوات وأعضاء المؤسسات الشريكة واللجان الاستشارية في مناطق القدس، والخليل، ونابلس.

تمهيد

تقديم: ساما عويضة

المديرة العامة

مركز الدراسات النسوية

تزويج الطفلات ظاهرة انتشرت منذ عقود طويلة في العديد من المجتمعات، ومن ضمنها مجتمعنا الفلسطيني حتى كادت تصبح أمرًا مفروغًا منه ويتم تداوله على أنه أمر عادي لدرجة أن القانون لم يناهضه بل أقرّه عندما اعتبر أن سن الزواج بالنسبة للفتاة هو ستة عشر عاماً قمرية، أي حوالي خمسة عشر عاماً وبعض الأشهر. وبالرغم من إقرار قانون إلزامية التعليم الأساسي، إلا أنه لم يتم وضع أي لوائح تنفيذية تضمن هذه الإلزامية في التعليم حتى بات التسرب من المدارس عادة اجتماعية لا يحاسب عليها القانون، حيث يتسرب الذكور من المدارس للعمل على اعتبار أن دور الذكور هو إعالة الأسرة، فيما تتسرب الفتيات من المدارس لأسباب مختلفة لها علاقة بالعادات والتقاليد والعيب و"الحرام" وما يتبع ذلك من تزويج لهن قبل أن يكنّ جاهزات ومؤهلات لذلك.

كمنظمة نسوية فلقد اهتمّت عضوات مركز الدراسات النسوية بهذه الظاهرة أي ظاهرة تزويج الطفلات، نظرًا لما تحمله هذه الظاهرة من حرمان للصغيرات من استكمال مرحلة الطفولة بأمان وممارسة حقهن في اللعب والدراسة، وقبل أن يصبحن مؤهلات ومتمكنات من حماية أنفسهن واختيار الأدوار التي تناسبهن وتلبي طموحاتهن وتسهم في بناء مجتمع متماسك وقوي وقادر على مواجهة التحديات. وعليه فقد عمل المركز ومنذ التسعينيات وضمن برنامج التنمية الريفية الذي تم تنفيذه بالمشاركة مع بعض المنظمات الأهلية الفلسطينية في بعض قرى جنوب الضفة الغربية على نشر الوعي حول سلبيات التزويج المبكر للطفلات، حيث وجدنا في حينه أن أحد أبرز المشكلات التي تعاني منها الفتيات في تلك القرى كانت انتشار ظاهرة التزويج المبكر وما يترتب عليها من حرمان وخوف وطلاق مبكر في بعض الأحيان وما تعانيه المطلقة الطفلة في مجتمع محافظ. ومن ثمّ قام المركز بتطوير برنامج "تعزيز حقوق الطفلة" الذي يتناول العديد من الحقوق ومن ضمنها حق الطفلة في استكمال مرحلة الطفولة بأمان وما يتطلبه ذلك من مناهضة فكرة تزويج الطفلات. هذا وقد شارك المركز أيضًا على المستوى الإقليمي في حملة عربية إقليمية انطلقت على أثر مؤتمر عقدته مؤسسة أبعاد النسوية في لبنان استهدفت نشر الوعي حول سلبيات تزويج الصغيرات ومطالبة الحكومات بسن قوانين تعمل على مناهضة تزويج الطفلات.

هذه الدراسة ليست الدراسة الأولى التي يقوم بها المركز حول تزويج الطفلات، حيث سبقت هذه الدراسة دراسة تحليلية ومعمّقة حول تزويج الصغيرات بالتركيز على واقع محافظة القدس حيث ترتفع نسبة تزويج الطفلات في القدس نتيجة لواقع القدس السياسي والاجتماعي، وقد قام بإعداد هذه الدراسة فريق متميز مكون من د. هشام أبو ريا ود. يحيى حجازي وأ. مارلين الربضي، وقد شملت هذه الدراسة أسباب ودواعي وآثار تزويج الصغيرات في محافظة القدس، وخرجت ببعض التوصيات الهامة التي من شأنها أن تناهض هذه الظاهرة ومن ضمنها العمل مع الأطفال والمراهقين من الجنسين ومع الأهالي من خلال المدرسة التربوية، فكان أن تمّ إعداد "دليل مناهضة تزويج الطفلات" لمرشدي ومرشدات ومعلمي ومعلمات المدارس بهدف استخدامه في المدارس لتنمية المهارات الحياتية لطلاب وطالبات المدارس وتوعيتهم بماهية الزواج والمسؤوليات المترتبة عليه والمخاطر والتحديات الناجمة عن الزواج المبكّر، وقد قام بإعداد هذا الدليل كل من د. يحيى حجازي وأ.مارلين الربضي و أ.ساما عويضة وقام بمراجعته الدكتور هشام أبو ريا. هذا وقد قام المركز بتوقيع اتفاقية مع وزارة التربية والتعليم الفلسطينية تتضمن قيام مركز الدراسات النسوية بتدريب المرشدين والمرشدات الاجتماعيين في المدارس للعمل على الدليل مع الطلبة والأهالي، وتم تزويد الوزارة بنسخ كافية من الدليل ليصبح هذا البرنامج أحد برامج إدارة الإرشاد الاجتماعي في وزارة التربية والتعليم.

هذا وقد قام مركز الدراسات النسوية بتطوير العمل على مناهضة تزويج الطفلات ليصبح العمل على هذا الموضوع قضية مجتمعية حيث قمنا بتطوير العمل عليه على كافة الأصعدة، وبشكل خاص من خلال إدماجه في عملنا على برنامج "سند" الذي يقوم عليه المركز والذي يهدف إلى إدماج الشباب والشابات في المجتمع الفلسطيني في العمل على قضايا حقوق المرأة كحقوق إنسان، ويجعل من هذه الفئة فئة مساندة تعمل على تطوير الوعي المجتمعي وتجند الشباب والشابات للقيام بذلك. وفي هذا المجال فقد تم تشجيع فريق من الشباب والشابات وتدريبهم/ن من قبل الباحث الأستاذ أيمن عبد المجيد للعمل الميداني وجمع قصص حول تجارب بعض الطفلات اللواتي تعرضن لهذه التجربة (تجربة الزواج المبكر) ليتم استخدامها لأغراض هذه الدراسة، وللقيام بعرض هذه التجارب ونقاشها مع الشباب والشابات في الجامعات والمؤسسات الأهلية بالاستفادة من نتائج الدراسة، وذلك لحث الشباب والشابات على القيام بدور طليعي في نشر التوعية حول مخاطر التزويج المبكر للطفلات ومناهضته عبر شن حملات تطالب بتغيير القانون وتوفير وسائل حماية رسمية للطفلات بشكل خاص وللمجتمع بشكل عام، حيث لا تعاني الطفلة وحدها من آثار هذا الزواج بل يعاني أطفالها وزوجها أيضاً وتنتقل هذه المعاناة إلى البيئة المحيطة فالمجتمع بشكل عام.

واليوم ونحن نقدم هذه الدراسة لمجتمعنا المحلي نأمل أيضًا أن تستفيد منها المجتمعات الأخرى ولا سيما المجتمعات العربية التي تنتشر فيها هذه الظاهرة، وأن تعمل هذه المبادرة على تشجيع المزيد من الشباب والشابات للانخراط في العمل المجتمعي لتغيير بعض العادات الضارة واستبدالها بعادات إيجابية من شأنها أن تنهض بمجتمعنا الفلسطيني.

هذا ولا يسعني اليوم ونحن نقدّم هذه الدراسة إلا أن أتقدم بجزيل الشكر للباحث أيمن عبد المجيد على جهده وعطائه في تنفيذ هذه الدراسة والفريق المشارك، وللزميلة سهر عمر منسقة هذا البرنامج على جهودها في إنجاح هذا البرنامج الهام والذي من خلاله سيتم تعزيز الدور الشبابي في مناهضة العادات السيئة والنهوض بالمجتمع الفلسطيني باتجاه مجتمع فلسطيني يحترم المساواة كقيمة لا يمكن التنازل عنها عند الحديث عن القيم الإنسانية والتنموية.

والشكر كل الشكر موصول إلى مؤسسة Open Society على دعمها المادي والمعنوي لهذا البرنامج وهذه الدراسة

قائمة المحتويات

تقديم مفاهيمي ومنهجي ١١

المنهجية: ١٢

الأطياف المشاركة في الدراسة التوثيقية: ١٣

نتائج الدراسة التوثيقية ١٥

أولًا: التزويج المبكر في السياق الفلسطيني المعيش ١٥

ثانيًا: الحرمان من الحقوق ٢٢

ثالثًا: الهيمنة المضاعفة على الفتيات ٢٦

رابعًا: سيطرة وحرمان للطفولة ٣١

خامسًا: العنف: عنف مركب يطال كافة جوانب حياة الفتيات ٣٦

سادسًا: التبعات الصحية على الأم وطفلها ٤٣

سابعًا: إستراتيجيات التأقلم مع الحياة وليس التغيير فيها ٤٨

استنتاجات واستخلاصات ٥١

تقديم

على شمولية ارتباطاته وتفاعلاته، يتزايد حجم المخاطر الملازمة والناتجة عن التزويج المبكر في المجتمع الفلسطيني، ومع تردي الأوضاع السياسية وما يترتب عليها من أزمة اقتصادية وضيق معيشة وتراجع في الحياة الاجتماعية، وتصاعد البنى التقليدية على حساب البنى المجتمعية المعاصرة، يصعب على الأسر الفقيرة والفتيات الصغيرات مواجهة جبروت التزويج المبكر، ويصعب معه الحد منه أو تخفيف آثاره على الفتيات المُزوَّجات وعلى المجتمع.

وعليه لا بد من تجميع الجهود والقوى المناهضة للتزويج المبكر، وتنظيم حملة قوية تفضح الانتهاكات، وتقود عملية تطوير البنى والنظم المساندة للفتيات، والمانعة لعملية التزويج المبكر، بما يشمل صياغة القوانين وتطبيقها ومحاسبة من يقومون بتزويج الصغيرات. ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة لتبيان واقع التزويج المبكر في المجتمع الفلسطيني وارتباطاته وتأثيراته.

تتميز هذه الدراسة بمنهجية التوثيق المبني على السرد والمقابلات المعمقة، التي دُقّقت ووثّقت معلوماتها بلقاءات مع الأخصائيين والأخصائيات وفي مجموعات العمل التي حللت النتائج وقادت إلى الاستنتاجات.

دون شك، يحتاج موضوع التزويج المبكر إلى المزيد من الدراسات التحليلية المعمقة التي بمقدورها أن تزيل القناع عن وهم الانسجام المجتمعي والعدالة الاجتماعية وعدم التمييز، لتبين ما هو مخفي من انتهاكات وظلم وتمييز، لذا تسعى هذه الدراسة إلى وضع قضية التزويج المبكر على سلم اهتمامات المجتمع، وأن توفر للمهتمين ولصناع القرار الأرضية المعلوماتية التي يمكن لهم من خلالها إثارة هذا الموضوع وتحليل ارتباطاته وآثاره السلبية المختلفة على الفتيات المُزوَّجات مبكرًا وعلى المجتمع ككل.

تقديم مفاهيمي ومنهجي

تنعكس تبعات السياق الفلسطيني المعيش على الفتيات المستهدفات في البحث، بشكل بنيوي لتمس تفاصيل الحياة بشموليتها وتفاصيلها اليومية، ما يجعل من الصعوبة الانقياد إلى إطار نظري قادرٍ على فهم كافة عوامل التحليل الممزوجة بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية التي تلون ما يحيطها بصبغة من الانكسار والألم. تساهم عملية التحليل المعمّقة للمنهج التوثيقي على فهم الإشكاليات والأبعاد المختلفة لحياة الفتيات اللواتي تم تزويجهن، حيث تتجه الدراسة التوثيقية إلى معرفة الإشكاليات والظروف التي كونت الحدث ورافقت حياة وتجارب من كان نصيبهن الوقوع في براثن التزويج المبكر.

وعليه عمدت الدراسة إلى تتبع الخط التاريخي لهذه الصيرورة لتجد نفسها تتداخل مع انعكاس الأبعاد المعيشية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية على خصوصيات الفتيات النفسية والجسدية، وتطلّع على التداخل بين العام القوي والخاص الهش في تكوين معيشة هذه الفتيات.

وعليه إن قراءة ومعرفة التفاعل بين تلك العوامل والخصوصيات النفسية والجسدية والروحية يمكن أن تتمّ بالتعمق في فهم ما سردته الفتيات وتتبعته ووثقته الباحثات دون تقسيمه قسرًا وفصل أجزائه عن بعضها حتى تكتمل الصيغ بألوانها المختلفة على امتدادها الزمنيّ.

ولفترة تزيد عن عقود أربعة في بعض الحالات، تشير تلك التجارب إلى حالة متواصلة من القهر والمعاناة والألم، فتلك المقدسية التي يبلغ عمرها الآن ٥٧ عامًا تقول: "ما زلت أعيش وقائع الليلة الأولى، ليلة الدخلة التي سببت وما زالت تسبب لي الألم والمعاناة"، و"لن أنسى تلك الليلة ما حييت"،كان عمرها حينها ١٤ عامًا. هذه الحالة توضّح أن فهم حياة النساء اللواتي تم تزويجهن مبكرًا لا يمكن دون النظر بعمق إلى تجربتهن وحياتهن الذاتية يوميًّا وتفصيليًّا.

وبدل حصر حياة الفتيات في إطار مفاهيمي وقالب نظري محدد، اعتمدت منهجية هذا البحث على تتبع معيشة الفتيات المستهدفات وتوثيق مايسردنه لتشكيل مسار متشعب يصور هذا الواقع. وطُوّعَ التحليل لمجريات السرد بدلَ توجيهه لخدمة إطار نظري ما أتاح الفرصة للحفاظ على ألوان الصورة بأبعادها الإنسانية.

تنبع أهمية دراسة واقع النساء المُزوَّجات مبكرًا باستخدام أساليب البحث الكيفية الميدانية وتوثيقها من إدراك أن تحليل الأبعاد المتعددة مكانيًا وزمانيًّا ونوعيًّا ضمن الصيرورة التاريخية لعملية التزويج يقع تحت تأثير عدد كبير من المتغيرات المتفاعلة التي تنعكس في صور متداخلة من القهر والمعاناة.

المنهجية:

استند الفريق البحثي في العمل منهجيًّا إلى التعرف على تجارب النساء من السرد البحثي المدعم في الحوار المعمق، في سياق أخلاقيات البحث العلمي التي راعت خصوصية واقع الفتيات المُستهدفات بالبحث وحقهن في الحديث أو الامتناع عنه، واستخدمت نتائج المقابلات حصريًّا لأغراض الدراسة التوثيقية.

استند البحث إلى منهجية تشاركية في مراحل العمل شملت تكوين وتدريب فريق البحث الميداني والتوثيق وكتابة التقرير البحثي، وفق ما يلي:

المرحلة الأولى: التدريب وبناء الفريق

اختيار وتدريب فريق البحث: اختير فريق البحث الميداني وفقًا لمجموعة من المواصفات واختبار جاهزية الفريق للالتزام بأعمال البحث الميداني.

بعد تطوير الإطار المرجعي للبحث دُرِّبتْ مجموعة من الشابات على التوثيق بطريقة عملية ووُضعت مقاربة للتدريب في السياق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي المعيش فلسطينيًّا.

ومن جانب آخر دُرِّب الفريق على التعامل مع الظروف التي تعيشها النساء اللواتي زُوجن مبكرًا من حيث تعقيدات تلك الظروف وتباين تفاصيلها عمّا هي لدى مثيلاتهن المتزوجات. اشتمل ذلك على دراسة الظواهر والعلاقات الاجتماعية في سياقها التاريخي، وبتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية المتعددة، والتعامل مع هذه التفاعلات على اعتبار أن الظواهر والسلوكيات الاجتماعية تتجه نحو الفردانية التي تتجسد في أساليب ونوع الحياة.

كما دُرِّبتْ الباحثات حول مفهوم النوع الاجتماعي، ومناهج البحث ومنهجية التوثيق وأخلاقيات البحث العلمي وبشكل أساسي على منهج دراسة الحالة؛ وذلك لأهمية هذا المنهج وسعيه لفهم التفاصيل وحفظ كرامة النساء، وتداخلاته بتفاصيل حياتية بأبعادها المختلفة (كما أشير أعلاه) ضمن أخلاقيات البحث العلمي؛ ولما يوفره هذا الإطار المنهجي من تعدد في الأدوات (المقابلات المعمقّة، والسير الذاتية للنساء ضمن المراحل المختلفة، وتحليل السياق المعيش بتفصيل أكثر، إضافة إلى تداخلات السياق بتفاصيل الحياة سياسيًّا واجتماعيًا وثقافيًّا).

المرحلة الثانية: العمل الميداني والتعلم من التجربة

تلا التدريب الخوض في مرحلة ميدانية تجريبية، حيث نفذت المتدربات تجربة ميدانية، وقامت كل باحثة/ متدربة بزيارة حالة من الحالات لتوثيقها. تلاها نقاش لوضع ملاحظات حول الحالة التجريبية، بهدف تطوير منهجية العمل ومهارات الباحثات/المتدربات.

استكمال العمل الميداني والتوثيق: استكملت الباحثات/ المتدربات العمل الميداني بناء على الملاحظات التي نوقشتْ من المرحلة التجريبية؛ بهدف الوقوف بشكل أعمق على الثغرات وتطوير منهجية التوثيق بالوقوف على الأبعاد البنيوية ومقاربتها بسياق الاقتصاد السياسي الفلسطيني المعيش.

المرحلة الثالثة: تحليل نتائج التوثيق

وقد اشتملت تلك المرحلة على:

مراجعة التقارير البحثية التي وثّقت من الميدان، ونقاشها مع المتدربات للوقوف على القضايا في إطار مفاهيمي.

عقد اجتماعات تدريبية تحليلية مناطقية لتحقيق هدفين: الأول تدريبي اشتمل على تقييم التجربة ككل، والثاني بهدف تطوير الدراسة منهجيًّا من خلال تحليل النتائج الرئيسية لتجارب الباحثات الميدانية، حيث أُشيرَ إلى أهمية عقد مقابلات إضافية مع خبيرات نسويات في المجالات المختلفة بهدف تطوير التحليل في التقرير وللتدقيق أكثر في المعلومات.

المرحلة الرابعة: تحليل النتائج مع ذوي العلاقة

قامت المتدربات بعقد مقابلات مع خبيرات صحيات واجتماعيات وناشطات نسويات في القضايا نفسها ومقاربتها مع التزويج المبكر. إلى جانب قيامهن بتطوير التحليل ونتائجه ومقاربتهن له مع الاستخلاصات المفاهيمية الرئيسية التي اشتقّت من التقارير الموثقة.

المرحلة الخامسة: كتابة التقرير

تطوير مسودة التقرير كنسخة شبة نهائية، وإرساله للمراجعة. وتطوير التقرير بحلته النهائية.

الأطياف المشاركة في الدراسة التوثيقية:

- النساء اللواتي زُوّجنَ مبكرًا: وُثّقت ١٥ حالة تزويج مبكر في ثلاث مناطق فلسطينية: (القدس ونابلس والخليل)، فعقدت الباحثات مقابلات معمقة مع النساء اللواتي زُوّجن مبكرًا، وقد عُقدت في بعض الأحيان أكثر من مقابلة لأغراض الدراسة.
- مجموعة بؤرية تحليلية مع شابات: عقدت لقاءات لمجموعة بؤرية مع عشر شابات في نابلس زُوّجنَ مبكرًا، وكان الهدف من المجموعة البؤرية تحليل النتائج الأولية التي ظهرت من عملية التوثيق للحالات.
- مجموعتان تحليليتان مع الباحثات المتدربات: بهدف تطوير محتويات الدراسة والتعمق فيها تفصيليًّا، وعُقدت لقاءات لمجموعتي عمل في كل من نابلس ورام الله ضمن هذه المرحلة.
- اللقاء والتنسيق المستمر مع منسقة المشروع من مركز الدراسات النسوية بهدف أخذ تغذية راجعة لتطوير العمل.
- عقد مقابلات معمقة مع متخصصات: تمّت مقابلة ١١ متخصصة وخبيرًا من نابلس والخليل والقدس، في المجالات التالية: المجال الصحي والطبي، والمجال النفسي والاجتماعي، والمجال الحقوقي، وقضايا العنف.

نتائج الدراسة التوثيقية

أولا: التزويج المبكر في السياق الفلسطيني المعاش

يرتبط التزويج المبكر بالأبعاد الاجتماعية الاقتصادية للأسرة والمجتمع: منها حجم الأسرة وامتداداتها وروابطها العشائرية، والعدد الكبير لأفراد الأسرة، والقرابة والعائلة الممتدة، والتفكك الأسري. وأبعاد اقتصادية للأسرة تتمثل في ضيق العيش، وقلة الموارد والفرص المتاحة، وصعوبة الظروف الاقتصادية، والعوز والفقر.كما يرتبط التزويج المبكر بنمط معيشة الأسرة وما يترتب عليه من احتياجات، وبالتأكيد ينبع ويرتبط بالمفاهيم والثقافة السائدة أيضًا. وبالنظرة إلى الفتاة: أهي فرد من أفراد الأسرة لها ما لهم وعليها ما عليهم أم أنها عبء يجب التخلص منه؟

تتفاعل درجة تماسك أو هشاشة الأسرة مع ارتباطاتها وتفاعلاتها في الواقع المعيش بما يشمل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والموروث الثقافي، وأشكال علاقات القوة في المجتمع.

وقد تتولد عن قسوة الواقع المعيش، مثل ظروف الانتفاضتين الأولى والثانية، والإغلاقات والتضييقيات الإسرائيلية واحتياجات أسرية مختلفة تنعكس على سن التزويج، منها حاجة الأمن والأمان للأطفال خاصة الفتيات، كما يولد العوز والإحباط والعنف الذي يهدد السلم الأسري.كما تولّد المخاطر السياسية حالة من استعجال النضوج المبكر بناء على الوضع البيولوجي للفتاة، تدفع إلى إخراج الفتيات من طفولتهن نحو النضوج الإجباري بما يتضمن ممارسة أدوار مبكرة للفتاة منها الإنجاب.

وإضافة إلى انبعاثه من الموروث الثقافي والحضاري، فللتزويج المبكر ارتباطات قوية بالنظام السياسي وبما توفره نظم وبنى الدولة من ظروف معيشية وقوانين وأنظمة توجه مسلكيات وعلاقات الأسرة في المجتمع، وبما توفره من حيز لحماية الأطفال.

السياق السياسي:

تبين المقابلات مع النساء اللواتي تم تزويجهن مبكرًا ومع الناشطات في مجال حقوق المرأة «أن للأوضاع السياسية والأمنية علاقة مباشرة وغير مباشرة بتزويج الطفلات؛ حيث أدّت الإغلاقات، والتنقل على الحواجز، وحملات الاعتقالات، ومنع التجول، إلى شعور بفقدان الأمان تولدت عنه حالة خوف بين الأهالي من تعرض الفتيات إلى التحرش والاعتداءات الجنسية من قبل جنود الاحتلال، ما دفع إلى الحد من خروجهن من المنزل وبالتالي إلى تقليل فرصهن في الحصول على التنشئة السليمة والوصول للمصادر بما فيها حقوقهن المختلفة.

وهنا يلعب السياق الاستعماري بتبعاته الاجتماعية والثقافية دورًا مركزيًّا في خلق ظروف إضافية تعزز ظاهرة التزويج المبكر، حسب ما ترى ناشطات نسويات.

حيث تؤكد مريم أبو تركي ذلك بقولها:

«الاستعمار يساهم في ظاهرة الزواج المكبر، أذكر عام ٦٧ لمّا دخل الاحتلال الضفة... نسبة كبيرة من بنات العائلة

أخرجهن أهلهن من المدرسة لخوفهم الكبير عليهن من الاحتلال». وتتابع أبو تركي: «يبرر الأهل تزويج الطفلات خوفًا من المستوطنين وإجراءات الاحتلال خصوصًا في مناطق التماس».

وتتوسع المختصة من جمعية تنظيم وحماية الأسرة «ميساء شلالدة» في تحليلها للسياق السياسي، بقولها: «هناك ارتباط وثيق بين الوضع السياسي الراهن وقضايا الزواج المبكر، فمن خلال عملنا في المناطق المهمشة والقريبة من المستوطنات والجدار، نجد أن الأهل يلجأون غالبًا لتزويج بناتهم في عمر مبكر بسبب عدم توفر المدارس للمراحل العليا في هذه المناطق، ما يساهم في خروجهن من التعليم وبالتالي تزويجهن مبكرًا خوفًا عليهن من المستوطنين وحيث يتواجد الاحتلال».

وأشارت شابة في إحدى المقابلات الموثقة إلى ممارسة نعرضها في هذا الاقتباس:

> «صار الأهل في فترة انتفاضة السكاكين يجوزوا بناتهم، وصارت البنات اللي مدارسهن قريبة من الحواجز ونقطة تفتيش الجيش بيفضلوا انه يتجوزوا بدل هالغلبة، في بعض المدارس اللي في القرى ما فيها مرحلة ثانوية ولازم ينتقلوا البنات لمدرسة خارج قريتهم فهاد الاشي بشجع الاهل لتزويج بناتهم. عمال اسرائيل بيتجوزا بدري مشان يأخذوا التصريح ليشتغلوا في الداخل».

يتضاعف وقع العامل السياسي عند الحديث عن واقع النساء في القدس، بانعكاساته اليومية التي تطال كافة تفاصيل حياة المقدسين والمقدسيات، حيث شكل ضعف مستويات الأمن والأمان ملاذًا للأسر في تعزيز فكرة التزويج لبناتهن، خاصة مع انتشار المخدرات والخوف من فكرة "الإسقاط الإسرائيلي" ومن فكرة المجتمع المفتوح للثقافة الاستعمارية.

أدى تعمد الاحتلال الإسرائيلي الاعتداء على الفتيات، في إطار ممارساته القمعية وانتهاكه لحياة الإنسان المقدسي، إلى التخوف من تعرض الفتيات للاستهداف بفعل التماس المباشر مع جنود الاحتلال، باعتبار أن سياسات الاحتلال موجهة للتضييق على الكل الفلسطيني، بالتالي أصبح السياق الاستعماري المعيش في القدس سببًا مركزيًّا لفكرة التزويج عند البعض.

ولا ننكر بمكان أهمية «مفهوم الجسد والحفاظ عليه» في الموروث الثقافي الفلسطيني وأن تهديد هذا المفهوم أثناء النزاعات يحصل بفعل الممارسات التي انتهجها الاحتلال الاسرائيلي بالاعتداء على حقوق الانسان بما فيها انتهاك حرمة الجسد للفتيات، في التفتيش أو قمع المظاهرات السلمية أو الاعتقال، أو عند الحواجز، وتفاقمت هذه الممارسات خلال الاعتداءات الأخيرة. وهذا يدعم الاعتبار القائم على ان التزويج في الاوضاع غير المستقرة هو إستراتيجية للتعايش مع الصعوبات ووسيلة دفاعية للأمان بمفهوم الدفاع عن الشرف والجسد والعائلة.
تقول شابة مقدسية في واحدة من المقابلات الموثقة:

> «يعني كل اشي بالقدس موجود، الواحد صار يخاف على حاله من اللي صار يشوفه، الانفتاح في القدس المحتلة خاصة في الشق الغربي وما يقابله من حياة المحافظة في القدس المحتلة واختلاف المنظومة القيمية أدّى بالأهل إلى اعتبار أن التزويج المبكر هو وسيلة أمان ممكن أن تحافظ بها العائلات على نفسها وعلى بناتها».

وتحدثت الناشطة النسوية عايدة عيساوي من القدس عن دور الاحتلال المباشر وغير المباشر في قضايا التزويج المبكر بقولها:

> «ينتج الاحتلال العوامل الأساسية التي تدفع إلى التزويج المبكر، وذلك بالاعتقالات، ومنع التجول، والحواجز، والفقر والبطالة، وتردي مستوى التعليم، حيث أدى ذلك إلى زيادة خوف الأهالي على الإناث ما ساهم في تقليل فرصهن في الحصول على التعليم والتنقل وبالتالي زيادة نسبة الجهل، بالإضافة إلى رجوع المجتمع للعادات والتقاليد القديمة كوسيلة للحماية بدل التحرر».

السياق الاقتصادي:

يشكّل تدني مستويات المعيشة أحد العوامل الأساسية التي زادت من نسب الزواج المبكر. وترتفع نسبة الأفراد الذين يعيشون تحت خط الفقر إلى ما يزيد عن ربع السكان، مع تباين صارخ بين الضفة الغربية وقطاع غزة[1]، ويصعب على الأسر التي يعيلها فرد أن تتدبر شؤون معيشتها بالاعتماد على عائد عمل هذا الفرد، حيث يعتبر متوسط عدد أفراد الأسرة الفلسطينية من خمسة إلى ستة، ويمثل تزويج الفتيات في سن مبكرة إحدى إستراتيجيات التأقلم مع ظروف المعيشة القاسية، إذ تستخدم هذه الآلية للتقليل من عدد المعالين، وبالتالي زيادة حصة الباقين من عائد معيل الأسرة المتواضع أصلًا.

وبمحدودية آليات مواجهة الفقر، وغياب البرامج الحكومية الراعية للأسر الفقيرة وللأطفال، فرض الواقع الاقتصادي المعيشي حالة من الظنّ عند بعض الأهالي أنّ احتياجات النساء تشكل عبئًا أعلى من احتياجات الذكور، مع تدني فرص مساعدتهن للأسرة في المستقبل كون الواحدة منهن ستكون زوجة لشخص ما في المستقبل عاجلًا أم أجلًا. شكل هذا الواقع دافعًا لدى بعض الأسر لتزويج بناتهن مبكرًا كوسيلة لتخفيف الأعباء المادية من جانب، وكوسيلة هروب للطفلة لتحقيق احتياجاتها المعيشية المنشودة.

تقول امرأة زُوجت مبكرًا:

> «كل ما تكبر البنت بزيد مصروفها ومتطلباتها وتطلعاتها، وعدم قدرة الأهل على مصروف البنت لهيك بجوزوها لأول عريس وإذا البنت كملت ثانوية يعني راح تكمل جامعة فتجويزها أحسن. لأنه تدريس الولد في الجامعة مردوده إلنا أما البنت مردودها لجوزها.
> العريس... بكون في بعض الأحيان معه مصاري وبده ينقذها من الفقر اللي هي فيه... كنت عايشة بأسرة وضعها الاقتصادي سيء لأنه عددنا كتير، إحنا ٨ خوات وأخين، وأبوي الوحيد يلي بيشتغل وهاد دفعهم لأنهم يزوجوني فبدل ما أبوي يصرف علي بصرف ع أخوتي الأولاد الصغار.»

وتشير قابلة صحية مقدسية إلى أن البعد الاقتصادي يلعب دورًا مركزيًا في تزويج الفتيات المقدسيات، وقد وصلت إلى هذا الاستنتاج من احتكاكها المباشر مع فتيات أثناء عملية الولادة، وكيف يكون التزويج ملاذًا لأسرهن من واقعهم الاقتصادي. مع كون هذا الملاذ بؤرة أخرى للفقر، حيث أفادت:

١ انظر تقرير النتائج الرئيسية لمستويات المعيشة في فلسطين (الإنفاق والاستهلاك والفقر)، 2017 الجهاز المركز للإحصاء الفلسطيني: http://pcbs.gov.ps/Downloads/book٢٣٦٨.pdf?date_٥_٧=٢٠١٨

«يدفع الفقر بعض الأسر إلى تزويج بناتهم زواجًا مبكرًا، لأنهم يريدون التخلص من أعبائهن ومتطلباتهن. مر عليّ كثير من النساء لديهن سوء تغذية أثناء حملهن، وعندما قلت لهن أن يكثرن من بعض الأغذية، قلن لي إنهن لا يملكن المال لشرائه. وهذا الفقر دفع العديد إلى تزويج بناتهم زواجًا مبكرًا لأنهم غير قادرين على توفير الغذاء لهن. حتى النساء لم يكنّ على مقدرة من تمكين أنفسهن اقتصاديًا لأنهن لسن متعلمات ولم يملكن أيًا من المهن البسيطة التي قد ترفع من مستواهن، كما أن أزواج الكثير منهن غير عاملين.. وعند تزويج بناتهم لم يهتموا بوضع الشب أو مَنْ هو... المهم أنه قد يساعدهم بالتخلص من مسؤولياتهم تجاه ابنتهم».

السياق الاجتماعي:

في ظل غياب التدخلات التنموية الرسمية والأهلية، تهيمن العلاقات الأبوية الذكورية على البنى الاجتماعية التقليدية ولدرجة ما المعاصرة (الأحزاب، والهيئات المحلية والعديد من الاتحادات والأطر الجماهيرية)[٢]، وتدعم وتقوي التوزيع المجتمعي للأدوار بما فيه من خدمة للهيمنة الذكورية الأبوية على المجتمع الذي تلعب فيه الأدوار الاجتماعية الموروثة لكلا الجنسين، والنظرة الدونية لأدوار النساء المحصورة في الدور الإنجابي، دورًا مركزيًا في السير بثبات نحو التزويج المبكر. وتتقارب النظرة الدونية وتتسق مع الثقافة المجتمعية السائدة والمتجسدة في عادات وتقاليد وقيم بعض الأسر التي ترى في التزويج قضية مصيرية للنساء، فتزويج البنت مبكرًا عندهم هو خيار أفضل من أن يسبقها قطار الزواج. وتنسجم هذه النظرة مع التوزيع الاجتماعي الموروث للأدوار الذي يحصر دور المرأة في الدور الإنجابي المرسوم لها اجتماعيًا.

وتوثق شهادات فتيات تم تزويجهن مبكرًا الأدوار التي تلعبها العادات والتقاليد وثقافة تهيئة الفتاة للتزويج، والتفكك الأسري، بقولهن:

«عادات وتقاليد في المنطقة... يعني البنت لازم تتجوز قبل الـ ١٥ إذا ما اتجوزت هيك...أكبر من هيك بتكون عانس»

"أنا أمي كانت تغيبني عن المدرسة مشان أحضر الأعراس والناس تشوفني، وتطلبني"

"تفكك الأسرة... مرة الأب بتكون مصرة تجوز البنت مشان اتضل لحالها في البيت".

"التقليد... متل بنت عمي تجوزت فأنا بدي أتجوز".

٢ انظر: أيمن عبد المجيد وسائد جاسر: المشاركة السياسية والنقابية في فلسطين: قراءة الواقع الفلسطيني في سياق علاقات النوع الاجتماعي (٢٠١٤). مركز الدراسات النسوية. القدس

فيما ترى نساء أخريات أن السبب الرئيس وراء زواجهنّ كان الهروبُ من البيئة الاجتماعية المعيشة أسريًّا، فهي فرصة للهروب من الظلم بطريقة غير مباشرة، أو نتاجًا لظروف الأسرة، حيث أشارت امرأة:

«اجاني العريس اللي يريحني من ظلم مرة أبوي (زوجة الأب) واللي يريحني من الهم اللي أنا عايشته.... بدي أتجوز وأقهر مرة أبوي... كل يوم ألبس الها لبسة شكل.»

إن مقاربة تلك الروايات لسياقها وتحليلها في كل سياق وبنيته، يشير إلى أن حياة النساء تتفاعل مع السياقات القائمة ككل وينتج عنها تبعات غالبًا ما تكون مجهولة أو غير متوقعة للنساء. وتعتقد الأسر والفتيات ذواتهن في حالات أخرى أن في التزويج المبكر خلاص من الخطر والفقر وضيق العيش، وأنه انتقال نحو الأمن والاستقرار الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي للفتيات.

عزز هذا الاعتقاد التوجه لدى الفتيات بالهروب من البيئة المعيشة إلى بيئة مجهولة. هذا مع العلم أن التجارب المعيشة وفقًا للحالات التي تمت مقابلتها، شكل لها الهروب قفزة نحو المجهول غالبًا ماكانت تبعاتها غير آمنة (أي أنّ الاعتقاد بالهروب الآمن يؤدي إلى بيئة غير آمنة). فالتزويج المبكر كما تروي النساء هو الهروب من حياة صعبة فيها ألم ومعاناة إلى حياة مجهولة تكتشفها النساء لاحقًا وتعيش ما فيها من ألم وكراهية ومرض واستغلال. تقول امرأة زُوجت مبكرًا كيف تفاعلت في حياتها العوامل الاجتماعية والاقتصادية معًا:

«كان للوضع الاقتصادي للأسرة دور كبير في تزويجي في عمر صغير، كنا تسع بنات وأهلي ناس فقراء، وكان أبي متوفىً وأمي وأخي يعملان في الزراعة عند الناس حتى يعيلونا».

وتشير امرأة أخرى إلى أن الواقع الاقتصادي وضعها في حلقة من التجارة والربح لدى رب أسرتها، بقولها:

«أبوي قرر يجوزني للعريس الغني عشان يساعده في سد ديونه ويصرف عليه».

وكما أشرنا سابقًا، تعتقد الفتيات في سنهن المبكرة، إلى أن التزويج المبكر هو سبيل الخلاص من الفقر والحياة الصعبة وهروبٌ من مشاكل الأسرة وهمومها، حيث تقول امرأة زُوّجت مبكرًا:

«وأخيرًا راح أطلع من فقر ونكد أهلي وأجاني العريس اللي يحققلي كل اشي نفسي فيه».

فيما تشير الناشطة النسوية والحقوقية سمر هواش مديرة فرع جمعية المرأة العاملة الفلسطينية في نابلس، تعقيبًا على تداخل الأبعاد المختلفة في قضية التزويج المبكر بقولها:

«إن حجم الأسرة وزيادة العبء الاقتصادي، والعادات والتقاليد، والتمييز بين الإناث والذكور، أسباب رئيسية في التزويج المبكر».

ثانيًا: الحرمان من الحقوق

يتفاعل واقع الأسر المتشكلة نتاج التزويج المبكر، مع العوامل الثقافية، والاجتماعية، والسياسية المعيشة لينتج ظروفًا معيشة متشابكة ومعقدة، تتعرض فيها الفتيات المُزوّجات مبكرًا إلى الحرمان من الحقوق الأساسية حسب ما أشارت نتائج التوثيق؛ كالحرمان من الطفولة كمرحلة عمرية يحصل فيها نمو عاطفي ووجداني جسدي ونفسي وجنسي للفتاة، يؤدي الحرمان منها إلى تبعات سلبية على الصحة النفسية والجسدية والجنسية مستقبلًا. كما يحد التزويج المبكر من فرص بناء القدرات وتنمية المهارات وتكوين الذات لمواجهة الحياة كالتعليم، والحرمان من اللعب والانخراط في نشاطات طفولية تتشكل بها شخصية الفتاة.

شكل التزويج المبكر حالة من الهيمنة والإجبار للطفلات على الخروج من مرحلة الطفولة، وما تعنيه لهن، إلى مرحلة البلوغ الوهمي، وتحويل الطفلات إلى زوجات وأمهات وربات منازل وما يترتب على ذلك من مسؤوليات وينتج عنه من قهر وألم، تقول هنا شابة زُوّجت مبكرًا:

> «لليوم أنا واقفة عند سن الـ ١٦ سنة مش حاسة حالي كبرت من جوا، بس من برا الكل بيشوفوني غير، رح تستغربوا قبل ٧ سنين رحت اشتريت لعبة إلي وحطيتها بغرفتي ومنعت أولادي يقربوا عليها. ولليوم هي معي وقريبة مني وحاسستها، انا انحرمت منها زمان وما كان بإيدي الخيار».

شكل التعليم أحد أوجه الحرمان الأساسي لما له من تبعات على تشكل حياة الفتيات؛ حالات تسرب الفتيات من التعليم التي تشهدها المدارس خاصة في مرحلة المراهقة ترجع في أغلبها إلى أسباب التزويج المبكر، علمًا أن إحصاءات التعليم الرسمية تشير إلى تراجع ملموس في تسرب الفتيات من المدارس[٣].

تعترف امرأة كيف كان التزويج المبكر مساهمًا في حرمانها من التعليم:

> «انحرمت من التعليم عشان أجاني عريس وأهلي شافوه مناسب إلي ومابيقدروا يخسروا هيك فرصة وزوجوني إياه».

٣ حول معدلات التسرب انظر: الكتاب التربوي الإحصائي السنوي ٢٠١٧-٢٠١٨، وزارة التربية والتعليم العالي. رام الله

وتقول أخرى إن أمنية حياتها ما زالت حتى اللحظة في استكمالها للتعليم:

«لليوم نفسي أتعلم... علمت ولادي وبناتي.. قويت عشانهم، بس حلمي إني أدخل جامعة لليوم جواتي، بناتي تخرجن وبتفوق وولادي... بس أنا حلمي ناقص».

وتلعب الثقافة الاجتماعية وتداعيتها مع السياق السياسي لدى بعض من الفئات المجتمعية دورًا في التزويج المبكر على حساب التعليم، وفي هذا السياق تقول امرأة زوّجت مبكرًا:

«احنا الفلاحين كانت عنا المدرسة في قرية تانية، وكانت وقتها حرب العراق، والدي منعني أروح من قرية لقرية للمدرسة، والحل برأيه إني اتزوج، كنت أبكي وأهدد إني أروح للمدرسة لما أشوف زميلاتي الصبح رايحات المدرسة».

كما أشارت ناشطات ومتخصصات نسويات في مجالات مختلفة أن للتزويج المبكر تبعات مختلفة على الحقوق وفي مجالات مختلفة، حيث تشير الناشطة النسوية فتنة خليفة من منتدى مناهضة العنف ضد النساء إلى أن للتزويج المبكر تبعات على حياة الفتيات المختلفة بقولها:

«تزويج البنت مبكرًا يعني عدم انصاف القانون لها وسلب حقوقها بالتعليم والعمل والعيش حياة كريمة وإنتهاك لحقوقها الجسدية».

وتؤكد على ذلك الطبيبة مي أبو زنط بقولها إن التزويج المبكر يرتبط بالحرمان من التعليم:

«عند الحديث عن التزويج المبكر حيث الحرمان من التعليم، تصبح الفتاة أمية وغير مثقفة في الأمور الصحية وتتقيد بالعادات والتقاليد وعدم الاختلاط بالطرف الآخر. الناحية التعليمية مهمة من ناحية العمل، وغياب التعليم يعني الاقتصار على العمل الذاتي والمتدني».

لم يكن الحرمان من التعليم مرتبطًا بالأداء الأكاديمي والتحصيل المدرسي للفتيات، بل هو نتاج ثقافة مجتمعية بتبعاتها السياسية والاقتصادية، وتقول امرأة زُوّجت مبكرًا في هذا السياق:

«أنا ما صحلي أتعلم لأني تزوجت زواج مبكر، وكنت شاطرة بدراستي ومدرستي وهو وعدني إنو راح يخليني أكمل تعليمي، حتى عمي اشترط عليه قبل ما أتزوجه، وبعد ما تزوجت ما خلاني أكمل لأنه أمه كانت رافضة وبعد وفاة زوجي ولما كبرت كتير بالعمر ضل عندي فجوة كبيرة بحياتي أنو ما تعلمت فقررت إني أتعلم لكن التعليم بعمر كبير مش زي التعليم وأنا صغيرة وبظل أحكي وأعيد وأزيد بأنه الواحد لازم يعيش كل مرحلة بمرحلتها».

تقول سيدة عن إجبارها على الزواج رغم رغبتها في إكمال حياتها التعليمية، وكيف تساهم تدخلات العائلة الممتدة بهذا الحرمان:

«إجبار الأهل بنتهم على الزواج وديكتاتورية الأب والأعمام بيجوزوا البنت قبل ما يسألوها، فبتهرب البنت من تعنيف الأهل ومرة الاب، أنا أهلي حرموني من أكتر اشي نفسي فيه اللي هو أكمل تعليمي».

جاء ذلك متوافقًا مع ما أشارت إليه الطبيبة النسوية سحر أبو غزالة في توصيفها للواقع خاصة في الجانب المتعلق بتبعات الحرمان من التعليم على الفتيات، التي تصل إلى سلسلة مختلفة من الحرمان خاصة من ممارسة حياتها وطفولتها:

«التعليم رغبة الكثير من الفتيات إلا أن معظم من تزوجن في سن مبكرة قد حرمن من حقهن في التعليم. قد يعود السبب في ذلك إلى صور سلبية منتشرة ترى أنه إذا أتمت الفتاة تعليمها فهي بذلك سوف تتمرد على زوجها، وكذلك بسبب الخوف من خروج الفتاة من البيت وتكوين علاقات مع صديقات في أماكن التعليم، حيث يعتبر الأزواج أن الصديقات هن مصدر سوء، وفتنة لتدمير العلاقات الزوجية، وتحريض الفتاة على زوجها واللجوء إلى الطلاق، هذه الصور السلبية تحرم الفتاة من ممارسة حياتها الطبيعية وتقييدها في عش الزوجية للإنجاب والتربية، والقيام بأعمال منزلية وتلبية رغبات الزوج وشهواته».

ثالثًا: الهيمنة المضاعفة على الفتيات

يأخذ مفهوم الهيمنة أبعادًا جديدة على الفتيات اللواتي زُوجنَ مبكرًا، إذ تتوجه جهود الرجل الأساسية للهيمنة على جسد الفتاة، هيمنة وسيطرة لا تفهمها الفتيات في سنهن. ويُعبّر عن محاولات الهيمنة والسيطرة الأولى بالألم والكراهية مع تقدم العمر، لذكرى الليلة الأولى مع الزوج. وتدفع الهيمنة في الثقافة الجنسية إلى مزيد من والإهانة والاغتصاب، إلى جانب أشكال مختلفة للهيمنة الذكورية من خلال تعزيز الأدوار الإنجابية والرعوية للنساء داخل أسرة زوجها، وخلق تبعية اقتصادية تتولد عنها سيطرة كبيرة، وغياب أي تشاركية في القرارات الأسرية الرئيسية.

تتجسد علاقات القوة القائمة في التزويج المبكر على عملية اتخاذ القرارات المتعلقة بحياة الطفلة التي لا تعي ما تعنيه مؤسسة الزواج من علاقات وسلوكيات تنتج نمط معيشة مرتبطة بحياة تختلف في مضمونها عن تجربة الفتاة وتوقعاتها من الحياة الزوجية، تؤكد شابة تزوجت مبكرًا على أحلامها الطفولية التي حرمت منها نتاج الهيمنة من قبل زوجها بقولها:

> «نفسي أربط شعري ذنبة فرس وألبس التيشيرتات وبنطلون الكابوي، وأرجع زي ما كنت. بس المنديل بعرفش أحطه ولا ألبسه مش متعودة عليه وزوجي بدو ألبسه مع إني لسه صغيرة».

وخلال لقاء لمجموعة مركزة مع شابات في نابلس زوّجن مبكرًا، تحدثت الشابات عن علاقات متداخلة تشكل معًا أنماطًا للهيمنة. فتحدثت إحدى الفتيات عن مفهوم الأبوية، وكيف تقارب دائمًا علاقتها مع زوجها بعلاقتها بأبيها. فيما أفادت أخرى عن كيفية ارتباط الهيمنة بكل حركتها ومسار حياتها اليومية التفصيلية، إذ وصل الأمر أنّه تزوج بأخرى.

فيما قالت أخرى إن أمنيتها أن تكمل تعليمها تصطدم مع هيمنة الزوج على تفاصيل حياتها اليومية وتدخله فيها، ما يحرمها من هذا الحق، وأكدت أخرى أنها تتمنى أن تكون عاملة ومنتجة، إلا أن هيمنة زوجها تحرمها من العمل وتحجب عنها هذا الحق.

لا يمكن فهم هذه العلاقة دون الحديث عن علاقات القوة في الأسرة والسيطرة الذكورية من منظور الشابات في تقبل هذه الهيمنة بسبب غياب مصادر الحماية والدعم. يرى بعض من أجريت معهن المقابلات أن الزوج في النهاية هو الحامي والمعيل والعشرة، وينظرن إلى ذلك باحترام رغم غياب المشاعر والحب والعلاقة الحميمية

بينهن وأزواجهن، فما تمارسه الفتيات واجب فقط[٤]. وعند سؤال غالبية من أجريت معهن المقابلات سواء في المجموعة المركزة أو في حالات التوثيق عن المشاعر، تمحورت أغلب الإجابات حول عدم ارتباط مشاعرهن تجاه أزواجهن بالحب، بل في الشعور القائم على أساس الاحترام الزوجي لا أكثر.

وفي تحليلها لعلاقات الهيمنة ضمن خبرتها الميدانية والعمل مع النساء، ترى الأخصائية الاجتماعية والناشطة النسوية «أمينة أصلان» أن علاقة الهيمنة تتعدى الزوج والزوجة وتتسق مع مفهوم الحماية حيث تقول:

> «هناك تدخل في الحياة الأسرية على حساب الطفلة يدفعها للطاعة، ينطلق هذا التدخل من مبدأ الحماية ويسعى لعدم تكوين فجوة بين العائلتين (عائلة الزوج والفتاة). وغياب العدالة في توزيع الأدوار في المنزل يغرق الفتيات في المسؤوليات والأعمال ما يحد من تكوين العلاقات...تكون علاقات الفتاة في المحيط علاقة سطحية لا يوجد فيها أي تفاعل أو نشاط في المجتمع الذي تتحدد علاقاتها فيه وفقًا لموقف أسرة الزوج أو أهلها».

كما ترى الباحثات في الحالات أن مفهوم الهيمنة يتضمن بعدًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا مرتبطًا بعلاقات القوة والسيطرة:

> «عدم استقرار الفتاة في أخذ قراراتها في الأمور الخاصة بعائلتها الصغيرة وليس لها سيادة على التصرف في شؤون حياتها».

وكونها قضية «تابو» يمنع الحديث عنها، تضيف الهيمنة الجنسية الثقافية أو العلاقاتية مزيدًا من التبعية والإهانة والإخضاع، لتتعزز بفعل توزيع الأدوار وحجب النساء عن الأدوار الإنتاجية المولدة للدخل، وقصر دورها على الأدوار الإنجابية والرعوية التي تقود إلى تبعية وهيمنة اقتصادية يتولد عنها مزيدٌ من السيطرة والتغييب عن القرارات الأسرية الرئيسية. وفي هذا السياق تقول فتنة خليفة من منتدى مناهضة العنف ضد النساء:

٤ نتائج مجموعة مركزة في نابلس عقدت في شهر تشرين الثاني من عام ٢٠١٨ لغرض الدراسة.

«بعض الفتيات يرفضن العلاقة الجنسية ويمارسنها مع الشريك فقط من جانب الواجب لا أكثر. وفي حالات أخرى تكون الفتيات متعطشات لتلك العلاقات بفعل الرغبة في العلاقة الحميمة، كونهن في مرحلة مراهقة. ومع الرغبة الشديدة في العلاقة الحميمة يكون لدى الفتيات متطلبات تهمل ولا تتم مراعاتها. في بعض حالات الزواج المبكر لا تراعى خصوصية العلاقة الجنسية وتكون تفاصيل العلاقة الحديث الدائر مع الآخرين».

تقول أخصائية صحية وطبيبة نسوية عن أثر الهيمنة الجنسية على الفتيات وما تولده من الآلام سواء كانت حسية أو نفسية أو ثقافية أثناء الممارسة الأولى للجنس بقولها:

«يرافق العلاقة الجنسية في حالات التزويج المبكر الآلام الشديدة، ولا يوجد متعة ولا مودة بينهم... وإن الطفلات الصغيرات يخجلن أو يخفن من الأسئلة الخاصة من الطبيبة النسائية بسبب مرافقة أهل الزوج لهن».

كما يتوافق مع هذا الرأي ما أفادت به شابة زوّجت مبكرًا حول تجربتها للعلاقة الجنسية في الليلة الأولى بقولها:

«ضربني وحسيت أنه اغتصبني لأنو كل شيء صار غصب عني وما حسيت بأي شعور إلا الوجع».

يعتبر الحديث حول الموضوعات الجنسية من المحرمات في الثقافة المجتمعية السائدة، ومع ذلك وبفعل الهيمنة المعاناة يتحدث بعض الشابات عن الموضوع، في إطار التجربة الأليمة واستبطانها في الذاكرة رغم مرور سنوات عدة على تلك الليلة. تحدثت شابة أخرى تزوجت مبكرًا بذات السياق:

«أنا هلأ واعية بحكي انو يومها مر علي كإنو اغتصاب، كنت أحس أنو اعتداء ع الخصوصية وكنت أحكي كيف بدي أمشي رجلي بوجعوني، كنت ضعيفة وبنية جسمي ضعيفة، وبقيت شهر وأنا أقول لحماتي أن رجلي بوجعوني».

وتضيف مريم شلالدة الأخصائية الاجتماعية والصحية في جمعية تنظيم وحماية الأسرة حول الصحة الجنسية للفتيات اللواتي زُوجن مبكرا بقولها:

«فعليًا الفتاة القاصر... طفلة، وقد تكون أعضاؤها التناسلية غير مكتملة بالمعنى الكلي ما يؤدي إلى حدوث مشاكل جنسية متعلقة بتركيبة الجهاز التناسلي نفسه أو بطبيعة وعي الفتاة بماهية العلاقة الزوجية ومتطلباتها ما يؤدي إلى مشاكل بين الأزواج بسبب النقص في المعلومات المتعلقة بالحياة الجنسية».

الهيمنة الواقعة على الفتيات نتاج التزويج المبكر، صيرورة تبدأ من بيت أسرتها

تختفي الطفولة عند الإناث في الزواج المبكر وتحل بدلًا منها مسؤوليات متعددة، لا تستطيع الفتاة التكيف مع المسؤوليات الجديدة نتاج إنهاك جسمها، ولكونها شخصًا ليس واعيًا لهذه المسؤوليات عاجزة عن تحمل تلك الأعباء، ما ينعكس سلبًا على صحتها الجسدية والجنسية والنفسية. فمن جانب الصحة النفسية تتعرض الفتاة لضغوطات كبيرة وصدمات مختلفة من واقع الزواج مقارنة بالأحلام التي كانت تتخيلها.

تقع الفتاة بداية تحت سلطة وهيمنة الأهل من ثم الزوج وأهل الزوج ما يجعلها شخصًا يعتمد دومًا على الآخرين، ويجعلها تواجه الأمور التي تتعرض لها في حياتها بناء على خبرات من حولها وغالبًا (خبرة أم الزوج)، وهذا يشمل تربية الأولاد أو التعامل مع الزوج أو أي أمور أسرية أخرى. ما يجعل معارف الفتاة محدودة في الخبرات التي تحصل عليها من الدائرة المتوارثة المتكررة. ومع فقدان فرصة الاستقلالية لتعيش الخبرات الخاصة بها أو لتتخذ القرارات، تحرم الفتيات من الاستقلال الاقتصادي أيضًا.

وغالبًا ما تواجه الفتيات اللواتي رغبن في التمرد على هذه السلطة وطالبن بالطلاق بيئة معادية، غير داعمة، خصوصًا إذا كان لديها أولاد؛ حيث يرفض والد الفتاة تربية أطفالها عنده على اعتبار أنه ووفقاً للثقافة المجتمعية السائدة فالأطفال يتبعون والدهم وأسرة والدهم ما يعني حرمان الأم من أطفالها الأمر الذي يجعلها تشعر

بالضعف وعدم القدرة على المواجهة، بالإضافة إلى شعورها بالعزلة في الإطار المنزلي وبأنها تابعة بشكل لا شعوري للزوج بسبب التبعية النفسية والاقتصادية. أما عن الآثار الجسدية فتشكل الأعباء المختلفة نتيجة التزويج المبكر إرهاقًا جسديًّا عامًّا مع شعورها بالخمول وعدم القدرة على إنجاز المهام بشكل يومي، وبعد الحمل يصبح الجسد أضعف، نتيجة استباق مرحلة الحمل للنضج الجسدي للفتاة، إضافة إلى عدم وعي الطفلات بمراحل الحمل وكيفية التعامل معها ما يقلل من درجة تكيف الفتاة مع الحمل صحيًّا وجسديًا ونفسيًّا واجتماعيًّا. أما عن الآثار الجنسية، ففي معظم حالات التزويج المبكر تحدث العلاقة الجنسية مع الزوج دون أي علم مسبق عن كيفية القيام بذلك، ما يترك لدى الإناث ردة فعل سلبية، وغالبًا ما تستمر هذه الصورة وهذا النمط بين الزوجين، تقوم فيه الزوجة بدور المتلقي فقط، وليس الشريك في العلاقة الجنسية، وبذلك تكون المتعة الجنسية فقط لطرف واحد هو الزوج. ونتيجة ذلك تستخدم العديد من النساء العلاقة الجنسية وسيلة لتحقيق مطالبهن باعتبارها وبشكل غير واعٍ إحدى نقاط القوة لديها. أما العنف فهو مرتبط بشكل كبير بالعامل الجنسي، حيث تصبح الحياة الجنسية للزوجة أمرًا أساسيًّا تقوم به باعتباره واجبًا. فهي أداة جنسية لإشباع رغبات الزوج من جانب، وربة منزل من جانب، ما يعرضها للإهمال. أما حال رغبة الزوجة في رفض الدور المفروض عليها، يتحول العنف من النفسي كالإهمال، إلى العنف الجسدي والعنف الجنسي، الذي غالبًا ينتهي بالصمت نتيجة التبعية وغياب الدعم الاجتماعي، هذا ما أكدت عليه عايدة عيساوي الناشطة النسوية من القدس.

رابعًا: سيطرة وحرمان للطفولة

«طول عمري نفسي يكون عندي لعبة ألعب فيها»

تتعدى الهيمنة المجالات المذكورة أعلاه، لتفرض ظلالها على الحياة العاطفية وعلى نمط تفكير الفتيات اللواتي زُوّجنَ مبكرًا. من خلال إيماءات مختلفة يتم التلاعب بعاطفة ومشاعر الطفلات، ويتم إيهامهن أن الزواج لعبة تقترن بلعبة بيت بيوت الطفولية، تزينها الألوان البيضاء والفرحة. ومع قلة وسوء التحضير للحياة الزوجية، تتحول لعبة الطفولة إلى حياة واقعها مرير بألوان سوداء ومستقبل غامض ومجهول. ومع محاولة الطفلات التشبث بطفولتهن، تدفع البيئة المحيطة وعلاقات القوة الفتيات بعيدًا عن أحلام وممارسات الطفولة نحو واقع جديد من الأعباء والمسؤوليات، فقطار الحياة دخل مرحلة تكوين أسرة عمادها زوجة طفلة.

تتجسد عملية التحول هذه في وجدان وعاطفة العديد من الطفلات اللواتي تحدثن عنه بتعبيرات تتداخل فيها مشاعر طفولية في داخلها قهر وألم:

> «كنت فرحانه عشان أجاني عريس، وراح ألبس البدلة البيضة وأشتري دهب».
>
> "راح يحبني ويجيبلي هدايا وحاجات وشوكلاتات".
>
> "راح يجيبلي الأشياء اللي نفسي فيها ويشتريلي سيارة، ويأخذني مشاوير ويخليني أروح وين ما بدي".

هذه توقعات الفتيات من الزواج المبكر، وتعبر عن حقوقهن الأساسية في اللعب والتعبير وممارسة حياتهن اليومية، وترافق مشاعر التعطش للعب الفتيات في حياتهن اللاحقة، حيث عليهن أن يحملن مسؤولية أكبر من طاقاتهن في رعاية الأطفال ومحبة أبنائهن، وتقديم المساندة والدعم لهم، هي مسؤولية تحتاج إلى مهارات لم يكتسبنها، خصوصًا مهارات التعامل مع الأطفال في مرحلة المراهقة أو تقديم التعليم المساند في الأسرة، حيث لم تعش هذه الفتيات مرحلة المراهقة ولم يكملن تعليمهن ما يخلق حالة من الشعور بالعجز والإحباط ويزيد من ثقل الهيمنة والتبعية.

أشارت الشابات في ورشة نابلس، إلى أنهن ما زلن يتعطشن لشراء ألعاب طفولية والاحتفاظ بها، بجانب أخريات تحدثن في الورشة ذاتها عن أن ذكريات المدرسة والطفولة ما زالت عالقة في ذاكرةكل منهن، وأنهن يتمنين عودة تلك الأيام، فيما تحدثت أخرى أنها ما زالت ترى في أسرتها ملاذًا لها وما زالت تزورها أسبوعيًّا، حيث يحرك الميول للطفولة المفقودة وجدانًا طفوليًّا حيًّا داخل هذه الفتيات.

وتأتي نتائج تلك الورشة لتؤكد على مشاعر الطفولة والحرمان منها، مع طفلات أخريات ممن عشن حالة التزويج المبكر:

«كنت أطلع من بيتي وأروح ألعب مع بنت الجيران وحماتي وجوزي يدوروا علي ويلاقوني بلعب عند بنت الجيران ويصرخوا عليّ ويحكولي أنت متجوزة وعندك بيت عيب عليكي شو بيحكو الناس عنا».

"في بيت حماي أولاد اخوته وخواته من جيلي كنت أروح ألعب معهم بس حماتي تمسكني من إيدي وتوديني عند جوزي وتحكيلي جوزك بدو إياكي".

وتحدثت الناشطات والخبيرات النسويات في السياق ذاته بتوافق مع ما جاء في روايات النساء، حيث قالت الدكتورة مي أبو زنط:

«يقتل الزواج المبكر الطفولة ويحرم الفتاة من الاستمتاع بطفولتها، وبعد أن تمضي في عمرها ترجع للمراهقة المتأخرة».

وقالت روضة البصير أيضًا عن انتقال الفتاة من الأحلام وخيال الطفولة إلى الواقع الصعب:

«ينقل الزواج المبكر الطفلة من عالم الأحلام والخيال إلى واقع صعب، أكبر من طاقاتها، يؤدي بها إلى صدمة نفسية وفجوة بين ما تحلم به وتفكر فيه والواقع».

وتحدثت متخصصة أخرى هي "سعاد اشتيوي" حول ذات الحرمان الطفولي وحرمانها من التعبير بأبسط الأشياء وأكثرها صعوبة بقولها:

«الزواج المبكر يعني حرمان الفتاة من الطفولة ومن حقوقها في التعبير عن الرأي والتعطش للّعب والحياة اليومية، وتحمل مسؤولية أكبر من قدراتها، ولا يوجد لديها مهارات وأساليب للتربية لأنها كانت محرومة من الرعاية العائلية وأصبحت مسؤولة عن بيت وأطفال».

ونجمل هنا بحديث لفتاة عن طفولتها، تكاد لا تفهم السياق الجديد المعيش، تعتب على أمها لأنها لم تعمل على توعيتها من جانب، ومن جانب آخر تكشف إحراجها من التساؤل أو الحديث عن خصوصيات ما زالت لا تفهمها:

«كنت زعلانة كتير من أمي وعتبانة عليها لأنه ما كان إلي وقت معها، حسيت لما تزوجت أنو انتهت علاقتي فيها بسب شغلها الطويل وبيوم الزيارة الأسبوعية المخصص لأهلي كنت أروح عند أختي الكبيرة، بس كنت أتحرج منها وما كنت أشاركها بكل الأشياء الخاصة الّي (التي) كنت بحاجة أسأل عليها».

السيطرة وامتداداتها بالأسرة الممتدة:

يقترن مفهوم السيطرة بتملك الزوج للفتاة التي زُوّجت مبكرًا، وغالبًا ما يتجلى ذلك بسطوة وهيمنة ذكورية. تمتد السيطرة لتشمل الأسرة الممتدة، وتتمثل فيما تفرضه الأسرة من قيود على حرية الطفلات وحرمانهن من التعليم، والخروج من المنزل دون سبب وجيه وإذن مسبق، وما يمكن أن يرافق ذلك من عنف نفسي وجسدي يمكن أن تمارسه أطراف مختلفة من الأسرة (كأم الزوج وأخته، وأب الزوجة وإخوتها الذكور)، حيث تتصل أشكال السيطرة بالتحكم في تفاصيل الحياة، سواء الجنسية أو الحمل والولادة والعلاقة مع الأبناء والأزواج.

يشكل مفهوم الواجب أساسًا في تكوين العلاقات العاطفية والوجدانية والجنسية للفتاة التي زوجت مبكرًا. يبدأ التعامل مع العلاقة الجنسية على أنها واجب أسريّ تتم صياغة تفاصيله بخيال وجموح ذكوري غالبًا ما يفتقر للمعرفة الأساسية عن العلاقات الجنسية. وتؤكد شابة زُوجت مبكرًا:

> «كنت أخاف من جوزي أول ما أشوفه دخل الغرفة أروح أتخبى بالخزانة».
>
> وعلى اعتبار أن الجنس والعلاقة الزوجية واجب تقول فتاة أخرى: "انا ما كنت أنام جنب جوزي لأنه بدي هيك بس لأنه واجب علي".

وتفيد مريم أبو تركي الناشطة في مناهضة العنف ضد النساء في ذات القضية:

> «بداية الزواج تشعر الفتاة بالسرور على الفستان والذهب وبعد فترة يتدنى أثر قيمته على حياتها وخصوصًا عند مقارنة نفسها مع صديقاتها في المدرسة».

ويمكن أن نلخّص باستخدام ما أفادت به الناشطة المقدسية، عايدة عيساوي حول تبخر أوهام الطفولة نتيجة السلطة عليهن، ودخولهن معترك الحياة بصعوباتها بقولها:

«تعيش الغالبية العظمي من البنات اللواتي يُزوجنَ مبكرًا حالة من الوهم أن الزواج هو المحطة لتتحقق فيها أحلامهن. وتكتشف الفتاة بعد الزواج بفترة قصيرة جدًا أنّ كل أحلامها حبر على ورق، وتكتشف أن الزواج يضعها تحت السيطرة والهيمنة ويفرض عليها مسؤوليات كبيرة، أكبر وأعقد من تصورها، ويضعها في واقع اجتماعي واقتصادي أصعب من الواقع الذي عايشته في أسرة والديها. وكأنها انتقلت من عائلة فقيرة إلى عائلة أفقر تظنّ أنها ستزيد من الفقر في الأسرة الجديدة».

خامسًا: العنف: عنف مركب يطال كافة جوانب حياة الفتيات

تواجه الفتيات اللواتي زُوّجن مبكرًا عنفًا مركبًا، يطال جوانب حياتهن المختلفة، حيث لا يمكن الحديث عن التزويج المبكر دونما الحديث عن العنف بأشكاله المختلفة. فالقصص والروايات اليومية المليئة بالحكايات الأليمة التي ما زال بعض السيدات ترويها على الرغم من مرور ثلاثة أو أربعة عقود على زواجهن، تمثل شاهدًا على العنف، وتبقى قصة التزويج بكل تفاصيلها ومحدداتها راسخة في ذهنية النساء، وخاصة تجربة الليلة الأولى وطريقة تعاطي الزوج مع جسدها. ومن تجارب هؤلاء الفتيات، تمثل ليلة الدخلة ليلة القتل لطفولتهن، فرضت بعدها مسار حياة مليئة بالخوف وعدم الأمان، وما يترتب على الخوف والهروب من الحس بالحرمان المتصل بتحديات يومية لحياة تكاد تكون بشخوصها وتفاعلاتها كوابيس يصعب تصديقها.

قالت سيدة زُوّجت مبكرًا:

> «في يوم عرسي كانت كل الناس فرحانة وأنا في عالم تاني مصدومة مش عارفة شو اللي بدور حولي.أجت وحدة من قريبات العريس بتسألني شو خايفة؟ اطلعت عليها باستغراب، حكيتلها يعني من شو بدي أخاف، لأني ما كنت أعرف شي عن ليلة الدخلة، وأمي ما حكتلي شيء عنها، لأنه عيب وما بصير. بس العريس كان بيعرف، كانت ليلتي صعبة كتير من الوجع... من هاي الليلة بلشت معاناتي مع زوجي».

كما ترى حالة أخرى أن العلاقة الجنسية بدأت تشكل عنفًا مختلفًا في حياتها، وترسم مسارًا من العنف طال جوانب حياتها المختلفة بقولها:

> «المجتمع عنا بيفرض على الوحدة تلبي رغبة زوجها في ليلة الدخلة حتى لو كانت تعبانة ونفسيتها متحطمة.كنت طفلة، خفت قمت أصرخ وأعيط، وهو يقول لي ما تصرخي ولا تعيطي. نمت بعد هذه الليلة، والمفروض حسب العادات عندنا، بعد ٣ أيام يجامعني مرة أخرى، لكن صحيت الصبح لقيت واحد فوقي!".

وللعلاقة الجنسية غير السوية مع الطفلات تبعات تلتصق بالعنف الجنسي، خاصة أن الفتيات يتحدثن عما تم معهن من عمليات اغتصاب، وما تؤكد عليها رؤى الخبيرات النسويات بقول روضة البصير:

«تتعرض الفتاة للاغتصاب من قبل زوجها والضرب والعنف الجسدي، ومن الممكن أن يحدث لها إعاقة دائمة أو مؤقتة، ويوجد بعض الحالات التي تعرضت من قبل زوجها للضرب بالشاكوش، وأيضًا تتعرض للإهانة وتقليل من قيمتها الإنسانية ويشكك في سلوكياتها».

وتضيف سعاد اشتيوي حول الصدمة التي تتعرض لها الفتيات بقولها:

«الفتاة تتعرض لصدمة نفسية والمفاجأة وعدم معرفة بالعملية الجنسية وينتج عن ذلك نزيف وأمراض تناسلية».

كما تحدثت مي أبو زنط عن تلك العلاقة غير السوية، التي تحمل أشكالًا مختلفة من العنف بالقول:

«عدم دراية الطفلات الصغيرات بالعلاقة الجنسية وتبعياتها، يعرض الفتاة لنزيف بسبب عدم الوعي بكيفية الممارسة ويؤدي ذلك إلى عدم الوصول إلى حالة الذروة الجنسية. وحدوث العلاقة في أماكن محرمة وفي أوقات الدورة الشهرية ما يصاحبها من أمراض خطيرة لدى الطرفين».

للعنف تبعات مختلفة على تفاصيل الحياة، تطال كافة تفاصيل حياة النساء، وتشمل الجوانب النفسية والجسدية والجنسية والاجتماعية والاقتصادية عنفًا مركبًا لا تعرف تفاصيله إلا النساء اللواتي زُوّجنَ مبكرًا، تقول سيدة:

«يسكر علي الباب وما يسأل عني باليومين والتلاتة، وممنوع أتصل او أسأل عنه، ولما كنت أحكيله إني بخاف أقعد بالبيت لحالي، وأقعد أحكي أنا وإياه إنه إلي حقوق عليه، كان يعصب ويضربني وكانوا أهلي يتصلوا وما أحكي شيء، قلت بيتغير. والجهاز اللي بتواصل فيه مع أهلي، كان من أهلي، أخده مني وباعه غصب عني. عرفت أنى حامل، وكان حارمني الأكل وما كان في معه مصاري،وكل ما أطلب منه شيء يقول لي ما معي مصاري. ضليت متحمله وأحكي بيتغير، مش حلوة أروح عند أهلي بعد شهر مطلقة. اشتهيت الجوافة وأنا حامل قعد يصرخ وشو بتطلبي مني هيك طلبات ما معي أجيبلك».

وللعنف دائرة مركبة أخرى من حيث تحكم العائلة الممتدة بتفاصيل حياة الفتيات، حيث شكل هذا مسارًا جديدًا من العنف الواقع على تلك النسوة اللواتي زُوّجنَ مبكرًا، تحدثت سيدة أخرى عن تجربتها:

«كانت بنت حماي المطلقة بتتدخل بكل شيء بالبيت وبالأكل وباللبس وبالطلوع، لازم الكل يؤخذ رأيها ورأي حماتي وإخوتها ما بسترجوا يحكوا معها. وإذا ما رديت على حماتي وبنتها بيقاتلوا علي ويشكوا لزوجي عني وهو يعصب علي ويضربني».

وتتصل في سياق الأسرة الممتدة ممارسات من الهيمنة والعنف ضد الطفلات اللواتي زُوجن مبكرًا، تلك الهيمنة التصقت بإقصاء واستبعاد رافقه عنف حسب رواية إحدى الفتيات:

وترى قابلة صحية مقدسية أن لا أحد يتطرق للحديث عن الآثار الجنسية والعنف الجنسي. وبحكم عملها كانت تلاحظ العنف الجسدي في بعض الحالات، وعند سؤال الفتيات عن هذا الواقع كانت ترد الفتيات «بأن أزواجهن

«عشت مع دار حماي بنفس البيت، كانت حماتي تنبه علي ما اضحك بصوت عالي، لا أتحدث بصوت عالي لأن أولاد وبنات حماتي اللي عايشين معنا بالبيت مش متزوجين، كان حجر (عزل) مفروض علي ومفروض علي طريقة اللبس في البيت، والغسيل ممنوع ينغسل مع ملابس باقي العائلة. بتغسليه على إيديك!!». لانو غسيلنا «نجس!» برأيهم ولازم ينغسل لحاله.»

وتحدثت أخرى حول العلاقات مع أهل زوجها، وتدخلهم المباشر وغير المباشر بتفاصيل حياتها مع زوجها بقولها:

"كان دائما بيني وبين دار حماي مشاكل وكانوا دار حماي يتدخلوا في، وجوزي كان يمنعني أحكي مع الجيران ومنعني أروح على دار أهلي، أنا كان جوزي يحدد لي عدد المرات اللي أطلع فيها من الدار".

كانوا مضغوطين أو لا يوجد معهم مال أو دون قصد يعنفوهن». كما أشارت إلى أنه يجري تغييب المرأة المتزوجة مبكرًا،لأنها لا تملك السلطة ولا القدرة على اتخاذ أي قرار. ويتم تحديد الأمور من خلال علاقة العائلات بعضها ببعض.

ولم تقتصر ممارسة العنف على الحيز الخاص للأسرة بل تمتد لحيز الأسرة الممتدة، كما تروي تلك السيدة عن أشكال العنف الممارس ضدها من قبل زوجها:

«مرة كنت عند دار سلفي سهرانة وطلب جوزي مني إني أنزل أعبي البانيو مي سخنة، وانا حكيتلوا خلينا قاعدين لسه بدري، إلا هو قام ضربني بوكس على منخاري وصار معي نزيف وأخدني على المستشفى، ولما سألوني بالمستشفى من ايش حكيتلهم وقعت عن الدرج».

ويمكن استخدام ما روته فتاة أخرى حول أشكال العنف المركب كاستخلاص لهذا الجانب بقولها:

«كان يضربني لما يمارس معي الجنس ولما يطلب مني إشي ما بعرف أعمله في العلاقة كان يعاملني بعنف».

طفولة خائفة ومتقبلة للعنف:

تُدفع الفتيات لتقبل العنف الممارس ضدهن بطرق مختلفة، بما فيها التطبيع من خلال تمرير تجربة الطفلات الأخريات خاصة إن كن قريبات من الدرجة الأولى. فتصبح إستراتيجية الذود عن النفس، تقاس من خلال تجارب الأخريات، فعلى سبيل المثال شكلت تجارب الطلاق والانفصال لأخريات، دروسًا كان على الفتيات معها أن يعملن على تقبل الواقع دونما محاولة لأي تغيير فيه حتى ينجين من نتائج الطلاق، وتحدثت النساء عن اضطرارهن التحمل وعدم اللجوء للتغير. تقول شابة:

«كنت دائما أنضرب من زوجي وكل ما أسأله ليه بتغيب عن البيت يضربني ويهيني وكان مش من حقي أحكي وأعبر عن رأي. وعلى الطالعة والنازلة ضرب ويعصب بسرعة علي وكان يتعاطى مخدرات وحارمني من الأكل وما إلي أي حقوق أطالب فيها».

وتؤكد خبيرة مجموعة من الناشطات النسويات وعملهن المباشر بحقوق النساء على ما تقدمت به النسوة اللواتي زُوّجن مبكرًا، تقول سمر هواش:

«زيادة العنف الممارس على الفتيات من قبل الزوج وانتهاك أجسادهن بالضرب المبرح في بعض الحالات يلحق الأذى الجسدي والنفسي بهن... وهروبهن من الواقع ومطالبتهن بالطلاق خيار للهروب من المشاكل».

كما تحدثت خبيرة ومتخصصة أخرى "سعاد اشتيوي" عن أشكال التعسف التي ترافق حياة النساء التي تتسم بالإهانة والإذلال تصل إلى حد الطلاق بقولها:

«إن الفتاة تهان من قبل الزوج ويصفها بالغبية لأنها لا تفهم متطلباته وتنتهي بالضرب والطرد من البيت والطلاق. ومن الممكن أن يتزوج عليها ويبقيها خادمة للعائلة والزوجة الثانية. هي من تنفذ احتياجاته ويجردها من إنسانيتها وأن تكون رهن تفكيره وشكه وأمراضه النفسية وينسى أنها إنسانة، وفي بعض الأحيان تستسلم لتستر نفسها، ويمكن أن تتعرض للقتل من قبل الزوج».

وترى الباحثات الميدانيات من خلال حوارهن مع النساء، أن من أهم أسباب تنامي العنف الأسري إصابة الزوج بأحد الأمراض النفسية غير المعلن عنها، وافتقاده مهارة التعامل مع الآخرين، بالإضافة إلى النظرة الخاطئة للزوجة، ومن أنواع هذا العنف: العنف اللفظي والجسدي والجنسي والإيذاء النفسي والخيانة الزوجية والشعور الدائم بالخوف والقلق والاكتئاب والتهديد بالطلاق. وتضيف الباحثات الميدانيات أن الطفلات غير مدركات للعنف الذي يمارس ضدهن، ويصبح الأمر لديهن روتينًا يوميًّا متقبلًا خاصة مع غياب وسائل الدعم والحماية لتلك الفتيات.

وتدعم الباحثات استنتاجاتهن بتوثيق لحالة ضمن إفادتها حول عملية الطاعة العمياء في الثقافة المتقبلة مجتمعيًّا، الثقافة التي تتربى النساء من خلالها على الإذلال والخنوع:

«بعد أسبوع أجت أمي وأخي واخواتي لزيارتي فحدثت أمي وأخواتي عن ضربه لي قالوا لي عادي كل الزلام (الرجال) بيضربوا نسوانهم بس المهم إنت تكوني مطيعة لزوجك ولحماتك هم أهلك مش إحنا».

صراع أسري ضحاياه النساء:

تتوسع دائرة العنف التي تواجه الفتيات وتتصل بدائرة الصراع المتشكلة، بشكل خفي وعلني، بين أهل الزوج وأهل الزوجة، غالبًا ما تكون الفتيات المُزوَّجات مبكرًا الضحية الأولى لهذا الصراع. فهناك طفلات عشن مع الأسر الممتدة وكافة الإشكاليات داخل تلك الأسر والصراع بين الأسرتين يرتد على الفتيات (الطفلات) وبشكل خاص اللواتي يعشن في إطار الأسرة الممتدة، وتكون تبعات الصراع مضاعفة على الفتاة ومن الجانبين أسرتها وأسرة الزوج.

كما يتموضع الصراع بين الزوجة وأسرة زوجها وكأن تلك العلاقة تقوم على قمعها والتحريض عليها، يتبع هذا التحريض مواقف وممارسات تمس الطفلة في جوانب حياتها المختلفة. وتجابَه العديد من الفتيات، منذ اليوم الأول، بأنماط تمييزية واضحة سواء بسبب فقر أسرهن أو مكان إقامتهم «الفلاحة»، حيث يشكل ذلك تمييزًا اقتصاديًّا وجهويًّا، هي عشائرية تتكون معها هويه التعايش، ما يضيف على الفتيات أعباء جديدة. ونورد هنا شهادات تعبر عن النظرة الدونية للذات وعن مدى العنف التمييزي:

«نيالك أختي مدني مين قدك».

"عشان جيت من القرية بظلهم يعايروا فيي".

"بظلهم يعايروني بظروف أهلي وأوضاعهم الصعبة".

ونورد هنا رأيًا للناشطة روضة بصير: "يلجأ الأهالي إلى تزويج الفتاة لحل مشاكل اقتصادية وهي حلول وقائية مؤقتة سرعان ما تنفجر".

سادسًا: التبعات الصحية على الأم وطفلها

ترافق حياة الفتيات والقاصرات اللواتي زُوّجنَ مبكرًا تبعات صحية مختلفة، يكون لها انعكاسات مباشرة على حياة أطفالهن صحيًّا ونفسيًّا. منها ما هو مرتبط بصحة الأطفال لأمهات لم يكتمل نموهن النفسي والجسدي بعد، ومنها ما هو مرتبط بالمهارات والقدرات على التنشئة والتغذية والتربية وتنعكس على صحة الأطفال، وقد تصل إلى حد الإعاقة.

ذكرت طبيبة نسوية متخصصة من الخليل ما يرتبط بالواقع الصحي للفتيات اللواتي يزوّجنَ مبكرًا بقولها:

> «تكون الصحة النفسية والحالة الجسدية ضعيفة ولا تعي الفتاة ما يدور حولها. غالبًا ما تكون البنت مكتئبة، بسبب الإرهاق لجسدها وهرم جسمها بسبب الحمل المتكرر. لا تعرف بعض الفتيات ماذا تفعل في ليلة الزفاف، ما يجلب لها المعاناة والمشاكل، واجهنا حالة كان فيها غشاء البكارة مطاطيًا ولا تعلم الفتاة ماذا تفعل.. كان يأخذها زوجها إلى الكشف وهي لا تعلم ماذا يدور حولها ويوجد فتيات يعانين من مشاكل الحمل بتنزيل الجنين مرة أو مرتين بسبب عدم تحمل جسمها للحمل. كل هذا يجعل الفتاة عرضة لحديث الحماة وانتقاداتها حيث تحكي عن الفتاة كل شيء يخص حياتها الجسدية.»

ولمرحلة الحمل المبكر مخاطرة على النساء كالتسمم، والإجهاض. حيث يؤسس التزويج مبكرًا لتأريخ مرضي وواقع صحي للنساء كأمراض القلب والسكري إلى جانب الأمراض النفسية والعصبية،كما يرافق مسيرات الحمل والولادة انتهاك لجسد المرأة علاوة على الألم النفسي، وتفاصيل حياتية يصاحبها الفقدان والسواد الذي ما زال حاضرًا في ذاكرتهن. إن ما تتعرض له النساء من مخاطر أثناء الحمل، مع غياب أية مسؤولية أو رعاية أسرية خاصة من الزوج في ظل المخاطر التي تتعرض لها الزوجات، له أبعاده وتجلياته في حياة النساء اجتماعيًّا ونفسيًّا وصحيًّا واقتصاديًّا. بجانب تلك التحديات الآلام المترافقة لحاجة التنشئة والتربية للأطفال، خاصة في ظل معضلة كيفية رعاية طفل أو طفلة من أم طفلة...!

ونستدل بذلك على ما قالته سيدة زُوّجت مبكرًا بقولها:

«أنا متزوجة صغيرة، خلفت أول بنت ما عرفت كيف أتعامل معها ولا أهتم فيها، كان زوجي يدير بالو عليها وحماتي، حتى لما تفيق بالليل ما كنت أفيق إلها وما حسيت إني أنجبت إلا لما جبت الطفلة الثالثة لأني كنت أكثر وعي وصرت بأعرف شو الإنجاب».

وتتوالى شهادات النساء في هذا السياق حول صعوبة تعامل طفلة مع طفل مولود لكل أشكال الرعاية، والتعاطي مع احتياجاته الجسدية والنفسية والتغذوية والعاطفية والحسية:

«لما ابني عيط أتركه يعيط لأني مش عارفة ليش قاعد بعيط»
"ما قدرت أرضع ابني من صدري لأني ما بعرف كيف"
"ماكنت أعرف أعمل اشي لابني وأتركه بالساعات يعيط وما أقبل أحمله"
"أنا ابني لما يبلش يعيط بصير أعيط معه"
"أنا كنت ألعب مع ابني كأنه لعبتي"
"لما حملت كنت مبسوطة من إنه راح يجيني ولد وراح يكون قريب مني زي أهلي"
"أنا بس وعيت ع ابني التالت بس خلفته.. ولادي اللي قبل ما كنت واعية عليهم"
"أنا كنت أخاف أمسك ابني أول ما خلفته"

نورد هنا ما ذكرته الناشطة النسوية عايدة عيساوي عن تفاصيل هذا الواقع مع تداخلاته المختلفة على حياة النساء:

«تتنقل الطفلة في الزواج المبكر من أسرة ممتدة لأسرة ممتدة أخرى، ما يجعلها تنتقل من سلطة إلى أخرى، تبقى فيها التابع مع مسؤوليات إضافية، فهي لا تخدم الزوج فقط بل أهل الزوج بشكل كامل. كما أنها لا تملك الاستقلال الذاتي واتخاذ القرار في الحياة الزوجية، فغالبًا ما يُفرض عليها القرار من قبل الزوج وأهل الزوج حتى في مسألة الإنجاب وتربية الأطفال، ما يشكل علاقة غير سوية مع أطفالها نتيجة السلطة الواقعة عليها من جانب، وقلة الوعي تجاه الأطفال من جانب آخر».

"أما بالنسبة للتفاعل مع المحيط الاجتماعي والأهل، فإنه ونتيجة الزواج المبكر، تتحمل الفتاة مسؤوليات إضافية وضغوطات مختلفة يتم التكيف معها بشكل تراكمي، يدفع الفتاة إلى حصر نشاطها بالمنزل، ما يبعدها عن العلاقات الاجتماعية الأسرية. في بعض الحالات، تمنع الفتاة من تكوين علاقات اجتماعية أو من زيارة أهلها. وبذلك تُدفع الفتاة نحو علاقة قائمة على السلطة والتبعية بشكل غير واعٍ".

وتحدثت في هذا السياق أيضًا سعاد اشتيوي عن فجوة العلاقات الأسرية ببعدها العلاقاتي بين أهل الزوجة والزوج بقولها:

«إن كانت هناك فجوة في العلاقة بين أهل الزوج والفتاة، فإن على الفتاة أن تلغي علاقتها مع أهلها نزولًا عند رغبة أهل زوجها، حتى وإن كانت علاقتها مع أهلها أقوى وأكثر متانة، عكس علاقتها بأهل زوجها. ولا توجد عدالة في توزيع الأدوار بين الأسرتين».

أما الأخصائية والناشطة فتنة خليفة، فتتحدث عن الأعباء المختلفة التي ترافق حياة الطفلات، وما يشوبها من تحديات وإشكاليات في ظل سياق ثقافي واجتماعي قامع للفتيات، بقولها:

«كون هؤلاء الطفلات في مرحلة المراهقة فإن ذلك يعني حالة من التمرد، وعدم استيعاب أهل الزوج والزوج لهذه المرحلة يقود إلى المشاكل بين الأطراف، ويؤدي إلى زيادة في العنف الممارس على هذه الفتاة من أهلها وأهل الزوج، وتتصاعد الضغوط حتى تنصاع الفتاة إلى الأوامر والمتطلبات الملقاة على عاتقها، وفي أغلب الحالات تتعرض الفتاه إلى الضرب الجسدي والعنف اللفظي، ولا يهتم الأهل المتصارعون بالعامل النفسي لتلك الفتاة. في أغلب الحالات تتكيف الفتيات مع الواقع الذي وجدن فيه نتيجة لضغوط الأهل على الفتاة للتأقلم مع العادات والتقاليد المتبعة في المجتمع، وبذلك يتم رضوخها لأوامر الزوج وأهله.كي تتجنب وصمة العار التي تلحق بالفتاة حال قررت التمرد على الواقع أو الانفصال باعتبار أن الطلاق مثلًا جريمة بحد ذاتها في حق الفتاة وأهلها في معتقدات المجتمع والأهل».

وتحدثت الفتيات حول مأساة الحمل والإشكاليات التي تواجههن ومقاربتها بعنف الحياة والأسرة، حيث أصبح الحمل أيضًا شكلًا من أشكال العنف الجديدة التي تقع النساء ضحاياه، بالرغم من التبعات النفسية والصحية الذي يقبعن فيه، يضاف إلى ذلك تبعات عنفية من أهل الزوج والبيئة المحيطة، بجانب بيئة وظروف الولادة بحد ذاتها. حيث أشارت إلى ذلك الفتيات المُزوَّجات مبكرًا وشاطرتهم القول ذاته خبيرات في الصحة الإنجابية والجنسية والحقوقية، ونورد هنا بعض الاقتباسات من أقوالهن:

«كل يوم مشاكل وإهانات ومسبات وضرب، لحد ما خسرت الجنين الّي في بطني وهو بيضرب في، أخذوني على المستشفى والدكاترة عملوا اللازم وقالوا للدكاترة إني وقعت عن الدرج".

"بموعد ولادتي ما كنت أعرف معنى الولادة وكيف تولد المرأة، شعرت بوجع في بطني وظهري ونزلت "مية الراس" وكنت أغتسل وأرجع أنام. بعد ذلك سمعتني حماتي بأصرخ، قالت لي "الله يزلك، يكسر خاطرك لي ما قلتي" ذهبنا إلى المستشفى، الممرضة صرخت عليي".

"تزوجت ع ١٤ وأنجبت ع ١٥ وتعرضت لتسمم حمل وكنت أنا بدار أهلي وأبوي أخدني ع مستشفى وآخر صوت سمعته قبل ما أفقد الوعي تموتيش يابا وأنا ما كنت بعرف أنو هذا تسمم حمل إلا بعد ما صحيت من الغيبوبة".

وتتوافق آراء الفتيات مع الخبيرات، حيث تتحدث عن هذا الموضع قابلة صحية في القدس بالتبعات الصحية والنفسية على الطفلات في مرحلة الحمل والولادة بقولها:

«البنت التي تتزوج زواجًا مبكرًا يكون جسدها هزيلًا وضعيفًا. كما أنه أثناء الإنجاب، الكثيرات منهن يفقدن أطفالهن. كما أن للإنجاب في مقتبل العمر على الفتاة أثرًا نفسيًا، ومنهن من تدخل في حالة اكتئاب ما بعد الولادة ولا يقدرن على التعامل مع أطفالهن».

وحول تبعات الأخطار والعواقب التي تحدق بالطفلة ومولودها في ظل التزويج المبكر، والتي تصل في أحيان عدة إلى تهديد على حياتها، نجمل بأقوال الطبيبة المختصة مي أبو زنط:

«هناك خطورة كبيرة على الأم والطفل بسبب قلة الوعي في موضوعات الحمل والولادة، مثل عدم اهتمام الأم بغذائها ونظافتها الشخصية، وهذا من عواقب الزواج المبكر للفتيات. تنعكس قلة المعرفة على الإخلال في مبادئ الصحة الإنجابية الأساسية، وتؤدي إلى غياب الاستعداد النفسي والاجتماعي للتعامل مع الأطفال. بالإضافة إلى ذلك تتعرض الفتيات إلى المخاطر الطبية المباشرة للحمل المبكر وما يرافقه من ولادة مبكرة، وارتفاع احتمالات موت الأم لعوامل الخطورة المتعلقة بصغر عمر الحامل وزيادة احتمال حدوث الولادة المبكرة قبل استكمال الأشهر الرحمية التسعة، وارتفاع احتمالات حدوث المضاعفات أثناء الولادة وقلة وزن الوليد، وزيادة احتمال حدوث الإجهاض وموت الطفل داخل الرحم».

سابعًا: إستراتيجيات التأقلم مع الحياة وليس التغيير فيها

«تحاول الفتاة قدر المستطاع أن ترضي بيت الزوج والزوج نفسه» (طبيبة نسوية من الخليل).

تولد المعاناة تحديًا ذاتيًّا أو تقود للخنوع والتطبيع مع الحياة. في بحثها عن إستراتيجيات للتأقلم مع الحياة الجديدة تحاول الفتيات إيجاد توازنات ومخارج لشبكة كبيرة من العوامل والعلاقات المعقدة المترابطة فيما بينها، فالفتاة أسيرة للواقع الذي تعيشه أسرتها ويتفاعل مع السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي المعيش، ومن جهة أخرى عليها أن تتأقلم مع معيشة واشتراطات أسرة زوجها، وفي كلتا الحالتين لديها معرفة وخبرة محدودة، ولا يوجد من يسندها ويحميها، وعليها البحث عن التوازن وإيجاده، وعليها أن تبحث عما يبقيها على تواصل مع أسرتها ويمكنها من التفاعل الإيجابي مع أسرة زوجها، ومن تكوين أسرة خاصة بها. تشير عملية التوثيق إلى توجه أغلب الفتيات نحو الإستراتيجيات التي تساعدهن على التعايش مع الواقع الجديد مع العجز عن إيجاد إستراتيجيات لتغيير الحياة نفسها، رغم ما تتضمنه إستراتيجيات التأقلم من معاناة وآثار سلبية على معيشة الفتيات المُزوَّجات مبكرًا وعلى مستقبلهن ومستقبل أسرهن.

ترتبط إستراتيجيات التأقلم الأساسية بتقبل الواقع على علاته، والتعايش معه دونما محاولة تغييره لما تنضوي عليه عملية التغير من مخاطر يمكن أن تكون قاتلة في غياب أنظمة وهياكل الحماية الاجتماعية.

تتمحور إستراتيجيات التأقلم المتبعة من قبل الفتيات حول الصمت والسكوت والإذعان وتقبل المعاناة بفردية دون تبعات على أسرة الفتاة. كما دللت عملية تحليل حالات التوثيق المختلفة أن قلة من الحالات لديها محاولة للتوجه نحو إستراتيجيات المجابهة والمقاومة ورفض الواقع، إلا أن الكثيرات لم يتمكّن من المضي في هذا الطريق دون دعم وحماية، واضطررن إلى اللجوء لإستراتيجيات التأقلم والتكيف، واستخدمت محاولاتهن كوسيلة أو أداة تفاوضية مرضية للأطراف تساهم في تخفيف الواقع المؤلم ولو مؤقتًا، وهذا كان المسار الإستراتيجي للغالبية من النساء اللواتي شاركن في البحث.

وفي ظل غياب مفهوم الحماية الاجتماعية والمساندة للنساء، حتى من أسرتهن، تبقى إستراتيجية السكوت والخضوع والتأقلم مع الواقع الجديد هي المنهج العام لإستراتيجيات الفتيات بما تتضمنه من عنف ومعاناة، هنا تنوه إحدى السيدات:

> «كان جوزي يضربني ويضل يسب علي وأضل ساكتة لأنه بعرفش وين أروح، وإذا بروح على أهلي بيرجعوني ، كان جوزي يجبرني على إنه أنام جنبه».

وينسجم مع هذا التوجه ما أفادت به الأخصائية فتنه خليفة حول تأقلم الفتيات مع واقعهن نتاج الواقع الاجتماعي والمتولد عنه عادات وتقاليد تجبرها على الرضوخ:

«تتكيف أغلب الحالات مع الواقع الذي وجدت فيه، وذلك نتيجة لضغوط الأهل عليها ودفعهم لها نحو التأقلم مع العادات والتقاليد البالية في المجتمع، ورضوخها لأوامر الزوج وأهله».

ويمكن هنا استخدام ما أفادت به الأخصائية الاجتماعية والصحية ميساء شلالدة حول قضايا الإستراتيجيات المتاحة لدى الفتيات اللواتي زُوّجن مبكرًا ضمن بعدها الأسري، ومحاولة التحمل والرضا بالواقع المعيش:

«في العادة تحاول الفتيات اللواتي زُوّجنَ مبكرًا التأقلم مع الواقع من خلال الاستعانة بوالدتها وأخواتها الأكبر عمرًا لمساعدتها على تحمل أعبائها المختلفة. في كثير من الحالات، حتى لو كانت هذه القاصر تتعرض للعنف بشكل مباشر ومستمر من زوجها أو أهله فإنه يجب عليها الصبر والتحمل، بناء على ثقافة المجتمع والعادات والتقاليد ونشأتها، حتى لا تصل إلى مرحلة الطلاق المرفوض في مجتمعها. ويمكن أن تلوم نفسها على ما تتعرض له من عنف حتى تقنع نفسها بالاستمرار في حياتها الزوجية وتتقبل الأمر».

بعض الفتيات ذهبن نحو إستراتيجيات المواجهة التي تسعى النساء من خلالها أن يغيرن مسار حياتهن. يقوم هذا المسار على المواجهة من خلال الممارسة العملية، سواء من خلال التعلم من تجربة البيئة المتولدة من التزويج، كالانخراط في تجربة تعلمية تسمح للفتيات بمغادرة المنزل وممارسة اهتمامات أوسع مثل المشاركة في دورة حول لغة الإشارة والتعليم من أجل طفلها ذي الإعاقة النطقية والسمعية، أو بتبني إستراتيجيات أخرى مرتبطة بالانخراط والمشاركة الاقتصادية للتغلب على واقعهن وواقع أسرهن المتردي،كالعمل بأجر، وإنشاء مشروع اقتصادي مدر للدخل، أو السير في طريق حياة دون الزوج، واختيار الطلاق كوسيلة لتغيير الحياة كمسار استثماري في الأولاد وهو الأقل استخدامًا حسب الحالات التي تم توثيقها.

وهذه حال سيدة اختارت هذا المسار:

«تعلمت خياطة واشتغل خياطة للناس الي بتحب تصلح أواعيها، باشتغل في البيت، بشغل وقتي وبساعد حالي وولادي بالمصروف، وأنا حاليا قاعدة بتعلم دروس القران.إنشاء الله حياة ولادي بتكون أحسن من حياتي والله يقدرني وأعلم البنت لأن الشهادة متل ما بيقولوا سلاح في إيد البنت».

وتضيف "سمية الصفدي" من منتدى مناهضة العنف، حول الإستراتيجيات البديلة لتمكين الذات مجتمعيًا واقتصاديًا، بقولها:

«تحاول الفتاة أن تزيد من تعليمها وتلتحق بدورات، ولكن هذا على حساب صحتها ووقتها ويزيد عليها من المسؤوليات. وفي بعض الحالات يتم منعها من قبل الزوج وأهل الزوج من استكمال تعليمها أو خروجها للعمل أو أخذ دورات تقوية لنموها الفكري».

وتضيف الباحثات الميدانيات في تحليلهن للفرص المحدودة المتاحة أمام النساء التي معها تتشكل إستراتيجيات تعايش النساء المُزوَّجات مبكرًا:

«في إطار الفتيات المُزوَّجات مبكرًا، هنالك فئة قليلة من النساء التي تخلق الفرص لذاتها، من خلال التعليم والعمل على تغيير الواقع الذي تعيشه، ولكن الغالب يتكيف مع الوضع القائم ويترك أمر الطلاق كخيار بعيد المنال وذلك بسبب وصمة العار التي تلحق بالفتاة وأهلها من قبل المجتمع».

استنتاجات واستخلاصات

من المكان بأهمية الإشارة إلى أن هذا التقرير البحثي يقدم رؤية النساء اللواتي زُوجنَ مبكرًا، برؤية تحليلية في سياق البنى القائمة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وكيف ساهمت تلك البنى في خلق واقع بات من الصعوبة على النساء الانفكاك منه.

كما ارتكز التحليل على مقاربة أصوات النساء في إطار مفاهيمي، يرتبط بالأبعاد الحقوقية وما يقابلها من حرمان وسيطرة وعنف، وكيف تتماهى البنى التقليدية والحداثوية لتساهم بشكل أعمق في وطأة الحرمان كما ذُكِر في متن التحليل. وعليه بني التحليل من خلال فهم الآليات والعوامل والديناميات التي تحيط بتجارب وحياة النساء المُزوَّجات مبكرًا.

مبكرًا، ومع بدايات سن المراهقة، وقبل النضوج الجسدي والفكري، تقف الفتيات مكشوفات لعوامل التزويج المبكر، دون حماية اجتماعية أو دعم أو رعاية. بسبب الفقر أو بدوافع السترة تنقلب العديد من الأسر على هذه الفتيات، فبدل رعايتهن وحمايتهن، تدفع هذه الأسر بفتياتها نحو طريق معبد بالمعاناة والقهر، وتغيب عنه النظم والبنى المجتمعية الحامية.

صيرورة تاريخية من اليوم الأول للتزويج تتعمد بالألم والمعاناة يومًا تلو الآخر

للنساء اللواتي زُوجنَ مبكرًا سرديات يومية، تبقى تلك السرديات عالقة في ذاكرة النساء بتفاصيلها اليومية لتظلل جوانب حياتهن اللاحقة. تتحكم الأسر الممتدة في حياة الطفلات اللواتي زُوّجن مبكرًا، وحال التمرّد على تحكم الأسرة والزوج، يصاحب ذلك عنف وإهانة وصل إلى تعريض حياة الفتيات للخطر وإلى الإجهاض. وعلى الرغم من لجوء بعض الفتيات للطلاق وتحمل تبعاته، إلا أن خيار الطلاق يبقى الأصعب، تحاول النساء ما استطعن تجنبه نتيجة لما يترتب عليه من تبعات اجتماعية واقتصادية، كالعودة إلى بيت الأسرة، وما تحمله تلك العودة من تبعات اقتصادية واجتماعية وظلم إضافي خاصة إن كانت الأسرة تعاني من صعوبات مختلفة.

تتولد معاناة الفتيات من التزويج المبكر بصور تراكمية تقود إلى أمراض نفسية وجسدية وعصبية وحرمان من الحقوق بحدودها الدنيا، وفي حالات معينة تصبح الفتاة زوجة ثانية رغم قيامها بكل ما يلزم للحفاظ على أسرتها.

يُقاد هذا الواقع بثقافة وموروث اجتماعي مفاهيمي يلتصق بحياة النساء اللواتي زُوّجن مبكرًا، يعتمد على علاقات

القوة الذكورية المتملكة لجسد الفتيات ويقوم على الإخضاع القسري، ودفع الفتيات للخنوع الذي لا يخلو من التخويف والعنف والإهانة وتغيب عنه الإنسانية.

لم يكن سهلًا على فريق البحث الغوص في تفاصيل تلك القصص، حيث تنعكس معاناة النساء النفسية والجسدية على فريق البحث، سواء من خلال تلمسهم المباشر لهموم وألم ومعاناة النساء أو من خلال انعكاسات هذه الهموم أثناء تحليلها وتوثيقها بحثيًّا. يصعب التصور كيف تمكنت الفتيات الصغيرات من تحمل حدة وشدة العنف المركب بتفاصيله اليومية ومن التعايش معه، خاصة في غياب نظم وشبكات الدعم والحماية.

الإطار العام لفهم واقع النساء اللواتي زُوّجن مبكرًا

من الصعب فهم الواقع للنساء اللواتي زُوّجنَ مبكرًا، بمعزل عن السياق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المعيش للفتيات؛ كما أشارت نتائج التوثيق.

للتزويج المبكر أبعاد سياسية مرتبطة بالحالة الاستعمارية المعيشة في فلسطين، تمثلت في قضايا الحماية والأمن والأمان للفتيات. ويرتبط التزويج المبكر بالظروف الاقتصادية والمعيشية التي تعيشها أسر الفتيات، حيث يمثل التزويج للفتيات إحدى إستراتيجيات الأسرة للتعامل مع الفقر وضيق العيش. وأحيانًا توافق الفتيات على التزويج المبكر للهروب من ظروف الأسرة الصعبة.

وتدفع الإشكاليات الاجتماعية التي تعيشها الأسر نحو التزويج المبكر، كتفكك الأسرة، والعيش في كنف زوجة الأب أو الأقارب، وبيئة العنف، وسوء العلاقات داخل العائلة، إضافة إلى ما يستبطنه بعض الأسر من مفهوم «المساترة» وكأن الأسرة تسعى إلى سترة فتاتها ودرء فضيحة مُفترضة بتزويج بناتها.

تتداخل المفاهيم وتتركب العلاقات في سياق التزويج المبكر إلى درجة يصعب معها فهمها إلا من خلال مجموعة من المفاهيم المستقاة من الدراسة كـ:الهيمنة والسلطة، والعنف المركب، والقوة والسطوة، والسيطرة والإقصاء، والاستغلال، والتأقلم والتكيف، والمساترة والمعاشرة، والمفارقة بين الحب والعشرة، وطفولة مسلوبة، وطفلة ترعى طفلة، وليلة الدخلة برؤية طفولية، ومفهومي الجسد والجنس، وحماية الجسد، والذكورية... الخ.

التزويج المبكر والحرمان من الحقوق قبل وبعد التزويج

يتقارب التزويج المبكر بحرمان مركب من الحقوق المختلفة، هذا الحرمان يطال حياة الفتاة قبل تزويجها وبما بعد التزويج. فالحرمان من كل حقوق الطفولة المنصوص عليها قانونيًّا وعرفيًّا والمتمثل بالنمو الجسمي والحسي والعاطفي والوجداني، تحرم منه الفتيات مع بداية الحديث عن التزويج، بجانب الحرمان من التعليم، كحق

أساسي للنمو المعرفي. ويلاحق الحرمان الفتيات ما بعد التزويج، حيث يتمثل الحرمان الأساسي بكونها أصبحت ربة أسرة بتوريثها الأدوار الإنجابية والرعوية التقليدية، والامتثال لرغبات الزوج سواء كانت جنسية أو اجتماعية.

متلازمة العنف للتزويج المبكر

تواجه الفتيات اللواتي زُوّجنَ مبكرًا عنفًا مركبًّا، يطال مختلف جوانب حياتهن النفسية والجنسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويتولد عنه حالة من الإقصاء والاستبعاد من دوائر الحياة المختلفة. يبدأ هذا الواقع العنفي من اليوم الأول لعدد كبير من الفتيات اللواتي شاركن في توثيق تجربة حياتهن في الدراسة. وللعنف دوائره وممارساته، سواء أكان ذلك بمصدر العنف ومن يمارسه، أو بتنوع أشكال العنف الممارسة التي تقع على تلك الفتيات وتنعكس على مسار حياتهن، وغالبًا ما يؤسس لهذا العنف من اليوم الأول، وكما تسميه الفتيات «ليلة الدخلة» التي تبقى ماثلة بحدتها وعنفها في الذاكرة كاغتصاب مركب، كما وصفتها سيدة.

الاحتواء والحب والعشرة

كلمات عبرت عنها الفتيات تتضمن دلالات اجتماعية وثقافية واقتصادية، تقود نحو السيطرة الذكورية عند مقاربتها بالظروف المعيشة للنساء اللواتي زُوّجنَ مبكرًا. فالاحتواء من قبل الزوج هو وسيلة للسيطرة على الفتاة، واستبطان لحياة يراها الزوج ويود رسمها لزوجته لتعيشها بها. وحتى تتقبل الفتاة هذه الحياة عليها أن توهم نفسها أن الزوج يتحمل نكدها كما تتحمل هي سلطويته. إلى جانب التداخل والخلط في مفاهيم العشرة والحب، فبالنسبة للعديد من النساء تكون العشرة عندما يصبح بالإمكان التعايش مع ما هو قائم حتى لو كان ذلك يتضمن معاناة وتغييبًا للحقوق الأساسية. أما مفهوم الحب فإنه يميل نحو الحب الأبوي الرعوي الناتج عن الاهتمام.

نظرة طفولية للأسرة والحمل والولادة

يرتقي التزويج المبكر ليصل إلى حد الجريمة، يجب سن القوانين التي تمنعه وتحاسب عليه. يقود الحرمان من الحيز العام للطفولة بما يتضمنه من بناء المهارات الحياتية والقدرات الجسدية للفتيات من خلال اللهو واللعب والتعليم والتغذية، إلى العيش حياة بائسة. وعندما يقترن ذلك الحرمان بالحمل والميلاد، دون التهيئة النفسية والجسدية ومع غياب المفهوم، فإن الأسرة التي تولد من رحم هذه الانتهاكات تقوم على اختراق وهتك طفولة الفتيات من الليلة الأولى، ويتمثل ذلك الهتك في اغتصابهن، ويرافق الحملُ هذا الاغتصاب، ثم الولادة في عملية

معترف بها مجتمعيًّا. فالولادة التي ترافقها الرعاية للطفل والطفلة، تنم عن رعاية طفلة لطفل، وإن التعاطي مع الطفل الجديد دون خبرة وحياة ونمو، ترافقه أوضاع نفسية واجتماعية ضاغطة.

إستراتيجيات التعايش مع الواقع

ترى أغلب النساء اللواتي وُثقتْ تجربتهن في التأقلم والتعايش والتكيف إستراتيجية لا خيار سواها حيث الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تشكل بيئة قاهرة يصعب معها الانعتاق نحو حياة أخرى. ويرى بعض النساء في التوجه نحو الطلاق أو تجسيد الذات في العمل أو في المشاريع الإنتاجية، مع إيثارية للأطفال الأبناء والبنات، إستراتيجيات للتعايش مع الواقع يتم من خلالها البحث عن الذات في ظل غياب وسائل الحماية وشبكات الدعم المجتمعي.

للتزويج المبكر بعد ثقافيّ

يتمثل هذا البعد في الثقافة الأسرية التي تؤكد على أهمية الرضا عما هو موجود وأن الطاعة أساس للعيش، وتنسحب موضوعة الرضا على الجوانب الاجتماعية الاقتصادية، وموضوعة الطاعة على تقبل ما يرد عن الزوج وتنفيذه، وكأن الهروب من ظرف معين أوقعهن في ظروف أكثر قهرًا.

مقاربة السياق السياسي بالواقع الثقافي

شكل مفهوم الجسد والحفاظ عليه في سياق النزاعات أساسًا دافعًا للتزويج المبكر. ومع الممارسات التي انتهجتها إسرائيل في التعدي على حرمة الجسد للفتيات تجدد هذا المفهوم وأصبح التزويج في الأوضاع غير المستقرة وسيلة دفاعية للنجاة بمفهوم الشرف والجسد والعائلة بالنسبة لبعض العائلات. حيث شكل ضعف مستويات الأمن والأمان حافزًا للأسر في تعزيز فكرة التزويج لبناتهن. كما في القدس والبلدة القديمة في الخليل، والقرى المحاذية للجدار، حيث شكل انتشار المخدرات والخوف من فكرة الاسقاطات الإسرائيلية، وفكرة المجتمع المفتوح على «الثقافة المنفتحة» أساسًا لدعم التزويج المبكر.